١٠٩١

دار م. النحاس

عروس بالبريد

آرلين جايمز

www.elromancia.com
مرمورية

عروس بالبريد

آرلين جايمز

الزواج أولاً...

أحب المزارع ليون باراديس، والذي أتعبته الوحدة، عروسه التي استقدمها بالمراسلة، وذلك من أول نظرة، لكنه لم يكن يعلن حبه ذاك، حتى حمل اليه الباص ستة غلمان من الرعاع يخصونها، أترى هذه المرأة الرائعة الجمال قد استغفلته؟

هل سيأتي الحب بعد ذلك؟

في اعماقه، كان ليون يريد ان يكون هو كل شيء بالنسبة الى عروسه... أن يكون زوجاً وصديقاً حميماً... وحتى والداً لعصابتها المؤلفة من أخوتها الاصغر سناً منها، ولكن كيف يمكنهما الحصول على زواج حقيقي، أو ان يكونا اسرة، اذا كان لا يصدق ان كاسي تحبه؟

سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١,٥ دينار - المغرب: ٨درهم مغربي. - سلطنة عمان ١ ريال. - تونس: ٢ دينار

عروس بالبريد

«كنت أريد ان اكون زوجتك، ياليون، ومازلت.» قالت كاسي نلك برقة.

قال: «حسناً، فانت زوجتي فعلاً، انك على استعداد للقيام بأي شيء، فقط لأجل غلمانك، أليس كذلك؟»

شحب وجهها: «كلا... بل أريد نلك لأجل نفسي.»

«وما الذي تريدينه لأجلي انا، يا كاسي؟»

«أريد لك كل الخير، فأنت تستحق نلك.»

فقال وقد شعر فجأة بالغضب: «عرفان الجميل؟»

«اخبرني إذن ماذا تريد يا ليون.»

فبدت في عينيه نظرة قاسية: «هنالك أشياء لا تنال بالطلب فقط، يا كاسي، ليس بإمكان المرء ان ينتج مشاعر غير موجودة.»

جمدت في مكانها، انه لم يعد يريدها إذن، وليس بإمكان أي منهما ان يقوم بشيء في هذه الحالة.

آرلين جايمس

آرلين جايمس... نشأت في أوكلاهوما، وعاشت طوال حياتها في الجنوب، وفي سنة ١٩٧٦ تزوجت من (اكثر الرجال شاعرية في العالم). المؤلفة تحب الاسفار مع زوجها، لكن الكتابة كانت دوماً هوايتها الرئيسية.

عبير ١٠٩١

Abir 1091

عروس بالبريد

آرلين جايمس

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

الفصل الأول

استيقظت كاسي على هدير محرك الديزل، فتململت في جلستها وهي تصرف بأسنانها ألماً من تشنج عضلات عنقها، كانت تظن ان السفر بالباص سيكون بمثابة مغامرة شيقة، ولكن حتى الآن لم يتحقق ما كانت ترجوه، فقد كانت عيناها ما تزالان مقرحتين من الدموع التي ذرفتها وهي تودع احبابها في غرب فيرجينيا، زاد في ذلك قلة النوم. كان تركها لمدينتها صعباً إلى حد يثير الدهشة، وكان وداعها لاخوتها ولبيتي هو أقسى شيء قامت به في حياتها، يا للعزيز بيتي، لقد حدق فيها بعينيه الواسعتين المليئتين بالثقة، وقد تشبث بيد دودي بيده الصغيرة، بينما كان يبتسم من خلال التشوش الذي كان يسود ملامحه. كانت قد وعدته بأن تعود إليه بسرعة، وأومأ هو برأسه وقد اغرورقت عيناه بالدموع ولم تشعر بالارتياح إلا بعد ان غادرتهم واستقرت في الباص، لكنها وهي تراهم واقفين جميعاً يلوّحون لها بأيديهم مبتسمين بشجاعة، شعرت بغصة تصعد إلى حلقها، وألم في صدرها.

أغمضت عينيها واستغرقت في أفكارها، عليها ان تنجح، فليس ثمة من مجال للرجوع إلى الوراء، ولا شيء لتعود إليه، حيث لم يكن وجودها مرغوباً به. أما في تكساس، فستعيش والأولاد بسلام، إلا إذا... لكن لا، عليها ان لا تفكر بهذا الشكل، لقد كان ليون باراديس من الشهامة

بحيث أرسل اليها أجرة الباص، ومن اللطف بحيث استمر يكاتبها طوال تلك الشهور، وأيضاً عندما لم يلق عليها الكثير من الأسئلة عندما رفضت في البداية، ثم عادت فغيرت رأيها وقبلت دعوته للمجيء إلى تكساس، ربما لن يكون في كل شيء، مماثلاً لزوجها جوزيف، ولكن ليس من المفروض ان يكون مماثلاً لوالدها، كذلك.

قد يكون الاعلان عن طلب زوجة، طريقة غريبة هذه الأيام، ولكنه افضل خلقاً من إغواء فتاة في السابعة عشرة كما فعل والدها، ليس معنى هذا ان زوجة والدها هي بريئة بأي شكل، فقد كانت مارلين بنفس السوء الذي كان عليه والدها، شينتز استربريدج. كانا متلائمين تماماً، هي مدللة مغرورة ماكرة، وهو أناني متحكم، والاثنان قد جعلا من حياتها وحياة ابنها واخوتها حياة لا تطاق، ومهما كان المكان الذي هي ذاهبة إليه، فهو لن يكون أسوأ من ذلك القادمة منه، حتى ولو لم تكن حياتها الجديدة مماثلة للحياة التي أمضتها مع زوجها الراحل، فلا بأس... فالمرأة لا تكون محظوظة مرتين في حياتها، ودوماً على كل حال، سيكون لديها بيتي ابنها من جوزيف.

لكنها اصبحت وحدها الآن هنا، وقد لا يرغب ليون بارادايس بها بعد ان تخبره بكل شيء، خصوصاً عندما تخبره عن ابنها واخوتها، عندما تخبره عن الأولاد؟ ولكنه قد لا ينتظر إلى هذا الحد لكي يرفضها.

كان قد ذكر بإحدى رسائله: «انني لست شاعراً بالوحدة، أعترف بأن ثمة اوقات أشعر فيها بالوحشة والكآبة حيث انني أعيش وحدي هنا وسط عشرين ألف فدان، لكنني لا

أريد ان اغير نمط حياتي هذا، فأنا شغوف بهذا المكان، وكذلك بتربية المواشي، البعض ينظر حوله هنا فلا يرى سوى صحراء تحفها الجبال الصخرية، لكنني اشعر بالحرية وبأنني سيد نفسي كما كان رعاة البقر في الماضي، كلا انني لست رجلاً وحيداً، ولكنني أريد زوجة، رفيقة تشاركني كل هذا، وسنرى ان كنت ستكونين أنت تلك الرفيقة.

زوجة... رفيقة تشاركه كل هذا، واستدارت كاسي تنظر إلى صورتها المنعكسة في زجاج النافذة، أيمكن ان تكون هي تلك المرأة؟ لم تر في وجهها ما يجعل الرجل يفقد عقله، كان وجهها لا يعدو ان يكون عادياً لا شيء فيه يلفت النظر، فهو عريضاً في أعلاه ضيقاً في أسفله، أما عيناها فعلى شيء من الاتساع، كما ان فمها متوسط الحجم وشعرها اشقر بلون القش، جالساً تماماً، ومقصوصاً عند آخر عنقها، لعل الشيء الوحيد اللافت للنظر في وجهها، هو لون عينيها الداكن الخضرة، لكنها لم تكن ترى في ذلك ما يأسر الناظرين، كلا لم تكن في أي شيء فيها ما يجعل ليون بارادايس يقبلها زوجة، خصوصاً وهي تأتيه بستة من الغلمان.

هل كان سيكتب اليها منذ البداية لو ان صديقتها دودي كانت قد ذكرت له في الرسالة عن أولئك الغلمان عندما كتبت له بالنيابة عنها وذلك رداً على اعلانه ذاك؟ كلا، انها لا تعتقد ذلك مطلقاً، فالرجل قد يقبل بزوجة ذات ولد واحد، هذا إذا احبها حقاً، حتى انه قد يقبل بولدين معها، ولكن ستة؟ ليس ثمة رجل عاقل يقبل زوجة مع ستة أولاد، كما ان ليس ثمة

امرأة عاقلة تتوقع منه ذلك، لكن ما هو الخيار الذي امامها؟ لقد أوضح لها والدها شينتز ومارلين بصراحة انهما يريدان منها ومن الأولاد ان يغادرا المنزل قبل قدوم الطفل الجديد، فأخذت تبحث عن عمل آملة بأن تجد ما يمكن ان يساعدها على اعالتهم، هم السبعة، ولكن تلال غرب فيرجينيا لم تكن تحفل بالكثير من فرص العمل، خصوصاً ما يجعل أرملة لا تملك سوى شهادة التعليم العالي قادرة على إعالة سبعة اشخاص.

تلك الشهادة لم تكن تبدو ذات أهمية عندما تزوجت من جوزيف هانتر عندما كانت في السادسة عشرة، لقد اخذها جوزيف من منزل والدها وجهز لها بيت زوجية سعيداً، ثم انجبا ابنهما بيتي، كانت تظن انها بسبيل حياة رائعة سعيدة عندما قتل جوزيف في حادث اصطدام مفجع، ثم إذا بها تكتشف ان شهادتها تلك لا تفتح لها الأبواب امامها، وهكذا مضت مدة طويلة لم تجد اثناءها باباً يفتح لها سوى باب ليون بارادايس، ومنذ طردها والدها هي وابنها، من منزله، لم تجد امامها الا ان تسلك ذلك الطريق المؤدي إلى ليون، كما ان اخوتها الصغار سرعان ما سيجدون انفسهم في مثل موقفها. فإذا لم تجد لهم سبيلاً للعيش فستتولاهم المؤسسات الخيرية، خصوصاً الأربعة الصغار، وهذا يعني انها قد لا تراهم أبداً بعد ذلك، لقد اقنعتها دودي بأن ليون بارادايس هو الذي سيساعدها، وان مصيرها ومصيره واحد، وانها هي دودي، قد أحست بذلك منذ اللحظة التي قرأت فيها اعلانه ذاك في صحيفة لشؤون الخيل وجدتها ملقاة على مقعد خشبي في محطة الباص،

وعندما حدثتها رسائله على مدى شهور، عن شخصية راعي بقر مكافح ذي روح شاعرية، صارحتها دودي بأنها مجنونة إذا هي لم تذهب لانتهاز هذه الفرصة التي يقدمها إليها. لكنها نصحتها بأنه من الأفضل عدم ذكر الأولاد، حيث قالت: «انظري أولاً ماذا سيحصل بينكما.»

في البداية، حين لم يكن في نية كاسي ان تكون عروساً بالبريد، لم يكن يبدو في ذلك أي خداع، اما الآن فقد بدا لها الأمر ليس خداعاً فقط، بل عاراً، اقرب إلى ان يكون جريمة، لكنها لم تستطع ان تجد وسيلة للتراجع، كل ما استطاعت ان تقوم به هو ان تتابع توجهها إلى الأمام آملة بأن تعجب ليون بارادايس إلى حد يجعله يتجاوز عن مسألة بسيطة مثل تربية ستة أولاد، أو خمسة في الواقع. ذلك ان أخاها نيوت يعتبر راشداً حيث انه في التاسعة عشرة من عمره، كذلك ابنها بيتي لا يمكن ان يزعج احداً، فهو طفل في الرابعة بالغ الهدوء والخجل، لكن فريدي لم يكن صبياً خجولاً، ولكن روح النكتة عنده كانت حلوة تماماً بالنسبة إلى صبي في السابعة ما يجعله بالغ الظرف، أما بارت وهو في العاشرة فقد كان يعتبر نفسه فوق هذا التهريج السخيف، كما كان يدعوه، لكنهما هما الاثنين، كانا عدا عن كونهما اخوين، صديقين حميمين، وقبل ان يستعمل بارت نظارات، كان أخوه فريدي يقوده بيده في الأنحاء وأثناء اللعب، اما التوأمان، كيلر وكول، فمع كل مشاغباتهما إلا انهما لم يعيرا بارت بقصر نظره، لكنهما وهما في الرابعة عشرة، كانا يساعدانها حقاً، إنهما بحاجة إلى إرشاد وليس إلى العنف والقسوة اللتين كان والداهما يقابل بهما لهوهما، وقد كانت

دودي متأكدة من ان ليون بارادايس سيكون ذلك المرشد، وذلك عندما يتم التجاوب بينه وبين كاسي، لكنها الآن في ظلمة الليلة هذه في فان هورن في تكساس، بينما لحظة الاجتماع تقترب بسرعة، اخذت تتساءل عما إذا كانت على خطأ في كل ما اقدمت عليه.

ان الأمر لن ينجح، لا يمكن هذا، فهو سيلقي عليها نظرة واحدة ثم يعيدها في أول باص إلى شرق البلاد. أو ربما يتحدث اليها بكياسة ورقة دون ان يعني شيئاً من وراء ذلك، وذلك كما اعتاد تشينتز ان يفعل، حتى انه قد يبدو بخيلاً شحيحاً عندما يعلم بأمر الأولاد، وقد لا يكون بإمكانها أن تستمر لإنجاز هذا الأمر حتى ولو كان هو ذلك الشاب الفتان، كلما قلبت الأمور في ذهنها، كانت تصطدم دوماً بنفس الجدار، فهو فرصتها الوحيدة، كما انه الفرصة الوحيدة للأولاد، كانت تعلم في اعماق نفسها ان عليها بذل غاية جهدها، ثمة أمر واحد مؤكد، وهو انه مهما كان نوع ليون بارادايس بين الرجال، إذا ما اقتنع بالزواج منها فهي ستكون له افضل زوجة يحلم بها رجل، وهذا كل ما بإمكانها القيام به، ليس فقط بدافع احترامها لنفسها بل أيضاً لأي رجل، قد يقدم بيتاً لها ولغلمانها، لأنه يستحق مثل ذلك.

اخرجت من حقيبتها رسائل ليون وأخذت تتسلى بإعادة قراءتها، لقد نجحت تلك الرسائل في تهدئة مخاوفها، ليس ثمة رجل يكتب بكل تلك العفوية والمحبة، قد يكون عديم الإحساس، وليس ثمة رجل يظهر ذلك القدر من السرور والزهو بعمله، قد يكون رجلاً ضعيفاً، فالرجل الضعيف لا يمكن ان يتمكن من الوصول إلى امرأة تبعد عنه مسافة

نصف القارة. ربما لا بأس في البداية اذا ما هي اعجبته، فهذا ما يجب ان يحدث أولاً، ثم إذا بدا أن ثمة أملاً بانسجامهما مع بعضها البعض، فبإمكانها ان تخبره عن الغلمان، وإذ صممت على ذلك، أعادت الرسائل إلى مكانها، ثم أراحت رأسها إلى الخلف بغية النوم.

* * *

كانت ابتدأت رحلتها في الظلام، وستنهيها بنفس الشكل، كما كانت تحاول ان ترى شيئاً من هذه الأرض التي كان ليون بارادايس قد كتب لها عنها وعن شغفه بها. اخذت تحدق من خلال النافذة حيث الظلام يحجب تقريباً الجبال البعيدة القائمة في كل ناحية من الصحراء، لم يكن المنظر يشابه أياً من تصوراتها، كان بالغ الغموض والليل من الحلكة بحيث بالكاد رؤية الأفق، أما عدد تلك النجوم فلم تكد تصدق ان السماء يمكن ان تحويها كلها.

سرعان ما تقاربت الجبال حول شريط الطريق الرئيسي العريض عندها ركزت افكارها على الاجتماع القادم. اخذ قلبها يخفق قبل دخول الباص إلى الطريق الرئيسي بمدة طويلة، ليستدير بعد ذلك داخلاً إلى المدينة النائمة ما جعل خيبة الأمل تتملكها لذلك، وإذ بالباص يتوقف فجأة بجانب مطعم داكن اللون حيث كان هناك مقعد خشبي طويل غير مدهون بموازاة الجدار. فتح باب الباص فتصاعدت خفقات قلب كاسي.

نزل السائق أولاً فانزل أمتعتها والتي كانت عبارة عن حقيبة ملابس وصندوق كرتون مربوط بحبل رفيع، وبجهد

كبير نهضت كاسي ثم سارت إلى حيث توقفت عند الباب، تنفست بعمق ثم نزلت من الباص إلى الشارع المظلم، كان كل شيء هادئاً يسوده السكون ما عدا هدير الباص ونباح كلب بعيد.

قال السائق وهو ينظر حوله: «لا أرى احداً هنا في استقبالك.»

قالت بلهجة متوترة: «انه يعرف بأنني قادمة.»

«انه صديق إذن.»

لاحت على شفتيها شبه ابتسامة وهي تراه يقول ذلك بقناعة تامة.

تابع السائق يقول: «انه اذن سرعان ما يكون هنا، فأنت بأمان الآن.»

إذ بدا عليها التشكك قهقه ضاحكاً: «صدقيني لا يوجد باب مقفل في هذه المدينة، ونصف سياراتها مفتوحة والمفاتيح بداخلها، ليس هنا من يؤذيك، طبعاً ما عدا الافاعي.»

الأفاعي؟ أخذت كاسي تنظر حولها متوترة. فعاد السائق يضحك قائلاً وهو يشير بذراعه إلى بعيد: «الافاعي هناك وليس هنا، إلزمي مكانك ولا تتجولي في الأنحاء، ستكونين آمنة منها، وداعاً الآن.»

عندما صعد إلى مقعده قاومت نفسها كيلا تصعد عائدة ادراجها، ووقفت تنظر إلى الباص بعجز وهو يبتعد ليبتلعه الظلام. عندما تلاشى صوت المحرك، وساد السكون، اخذت تنظر حولها، كان بقربها عمود عليه مصباح واحد يلقي هالة شاحبة من النور حوله على الأرض، كانت المنطقة

حولها عزلاء إلا من عدة مبان ضخمة بعيدة، كان ثمة لافتة مضيئة فوق مطعم صغير حقير الشكل يسوده السكون هو أيضاً. من بعيد، بدا نور سيارة إجتازت الشارع ثم اختفت، ووقفت كاسي وحدها وسط هذا السكون والصمت الذي يلف الكون حولها. لم تشعر من قبل بوحدة ووحشة كما تشعر الآن. أغمضت عينيها للحظة، ثم جلست على المقعد الخشبي وأخرجت رسائله مرة أخرى، كانت تلك الرسائل كل ما لديها من امل الآن... كل ما لديها لتتمسك به.

* * *

في الوقت الذي وصل فيه ليون إلى فان هورن، كانت الشمس قد ارسلت نورها على المكان، وكان يشتم نفسه بطلاقة، مستعملاً لذلك أسوأ الكلمات الاسبانية مستغلاً عدم وجود والدته بجانبه. كان والداه ماي وجيرالد بارادايس قد عاشا في مزرعة بريسيديو للدواجن حيث ربيا أولادهما الثلاثة، وهكذا أمضى الصبية الثلاثة الصغار طفولتهم يطفرون مرحاً في الأنحاء حول البيت الكبير في مزرعة فارغان.

تمنى ليون الآن ان يكون هناك من يصفعه، كيف بلغ به الغباء إلى حد نسيان إحضار الراديو اللاسلكي معه؟ فقد اعتاد ان يأخذه إلى كل مكان يذهب إليه، لكنه الليلة الماضية، ومن بين كل الليالي، خرج من منزله تاركاً اياه على الأريكة حيث كان وضعه بعد ان أصلحه، ليتفاجأ بشاحنته معطلة، ولم يكن بمقدوره الاتصال بأحد اصدقائه كي يذهب لملاقاتها، انه لن يدهش إذا وجد انها قد استقلت

باصاً آخر عائدة من حيث أتت عندما لم تجد أحداً في استقبالها، كاد يتمنى ان تكون فعلت ذلك، وفي الحقيقة، لم يشعر ليون في حياته بمثل ما يشعر به من حيرة الآن تجاه أي شيء في حياته.

كان يريد زوجة، ولم يكن هو الشاب الوحيد في هذه المنطقة الذي يتخذ هذه الخطوة للعثور على واحدة، لكنه من ناحية أخرى كان يشعر بأنها الطريقة الأوفر حظاً له، وكان متوتراً لهذا إلى حد كبير، لماذا... نعم لماذا أرسل إليها لكي تأتي؟ لماذا لم يعرفها أكثر قبل ذلك؟ فيتصل هاتفياً إلى مكان عملها، أو ما أشبه؟ أحمق أحمق، أحمق. ثم شاحنته التي تعطلت في الطريق ونسيانه الراديو في المنزل في نفس الوقت... كل ذلك ربما هو نذير شؤم، لكنه ابتدأ ذلك الآن وانتهى الأمر، أنفق نقوده التي يتعب في جمعها هباء أو على الأغلب، لجلب الصداع له، لماذا فعل كل هذا؟

سأل نفسه هذا بصمت، ثم نطق بالجواب بصوت عالٍ بكلمات اسبانية منتقاة، ولكنه في اعماقه، كان يعلم السبب، انه ذلك الرسم التخطيطي الذي كان وصل إليه، كانت رسائلها إليه غير شخصية وذلك بشكل غريب، كان دوماً يشعر وهو يقرأها بشيء من خيبة الأمل، لكنها كما يبدو، كانت دوماً توحي إليه بشيء مهم عليه ان يقوله، شيء عليه ان يضعه على الورق بسرعة، وهكذا وجد نفسه يجيب رسائلها على الفور، ثم جاءه ذلك الرسم التخطيطي مرسوماً بقلم رصاص على مغلف، لكن إرساله بالبريد أفسده نوعاً ما، فخفف من خطوطه العريضة على الورق، ما جعل التخطيط أقرب إلى ان يكون صورة فوتوغرافية، لقد خفق

قلبه عند أول نظرة ألقاها على ذلك الوجه الأنثوي بذقنه الصغيرة ووجنتيه العاليتين، اما العينان فواسعتين تحت حاجبين مقوسين، بالاختصار، كانت ملامح غاية في البراءة.

كانت قطعة من خيال فنان، وكان التوقيع في زاوية الرسم نيوت، لكن الرسالة المرفقة بالرسم قالت انه أخوها وان ليس ثمة كاميرا يمكنها ان تنتج صورة اكثر شبها من هذا الرسم بصاحبته. تملك ليون فضول كبير جعله يكتب إلى دودي بأن ترسل إليه أوصافها، وما تلقاه منها كان كافياً لإلهاب خياله، فقد كتبت إليه دودي تقول: «معتدلة الطول، مائة وستون سنتمتراً على الأرجح، الشعر أشقر مالس مقصوص عند أسفل العنق، الوجه جميل، العينان واسعتان خضراوان، والاسنان جيدة، صغيرة اليدين والقدمين.

بعد كل هذا الوصف، اخذ يحلم بها، ثم تلقى منها تلك الرسالة التي كشفت له فيها شيئاً عن زوجها الراحل، أعجبه صراحتها ما جعله يرسل اليها أجرة السفر بعد ان أوضحت له اهتمامها بالحضور إلى تكساس. لكنه يدرك الآن انه سيصاب بخيبة أمل، إذ لا يمكن لكاسي أن تتناسب والصورة التي في خياله عنها. قد يكون من الأسهل لهما معاً ان تتخلى هي عن هذا الأمر وتعود أدراجها إلى بلدها في غرب فيرجينيا، ثم ما الذي ستفعله فتاة جبال فيرجينيا في هذه الصحراء المحرقة المتربة على كل حال؟ ربما ستقبل عدم الذهاب إلى المدينة اكثر من مرة أو اثنتين في الشهر ولكن الواحد والأربعين ميلاً التي تفصل بين المزرعة ومدينة فان هورن هي كافية لتجعلها تغيّر رأيها، ألم

تخبره والدته انه لا يوجد راعي بقر بعقله الكامل يقبل بأن يعيش في مكان مثل مزرعة بارادايس هذه؟

أوقف ليون سيارته امام محطة البنزين، ثم رفع قبعته ثم تخلل شعره الممزوج بأصابعه، وما لبث ان ترجل من شاحنته معيداً قبعته على رأسه، ثم سار في الشارع متجهاً نحو موقف الباص دون ان يفكر في شاحنته، ذلك ان صاحب المحطة سرعان ما يفتح المحطة الآن، وإذ كان يعرف شاحنة ليون فسيملأها بالغازولين، ثم يفحص المحرك، مستعملاً مفتاح الاشعال الذي تركه ليون له، ثم يبعد الشاحنة إلى جانب بانتظار عودة صاحبها، حيث سيتبادلان التحيات وتبادل الأخبار، لكن بما أن الشهر لم ينته بعد، فهو لن يعطيه نقوداً، لم يكن ليون هو الوحيد الذي يعامله صاحب المحطة بهذا الشكل، لكنه احد القلائل، فهو معروف بكونه عاملاً مجداً ونزيهاً وسريعاً في رد ديونه.

عبر ليون الشارع ملوحاً بذراعيه، وحذائه يقرع أرض الرصيف بخطوات واسعة مجتازاً واجهة المطعم، ورأى من النور في الداخل ان صوفي قد ابتدأت عملها اليومي، وفكر بشوق بكوب من القهوة الساخنة مع افطار دسم، لكنه قبل ان يفكر في الاستسلام إلى هذا الأمر، كان قد انعطف حول الزاوية إلى حيث وقف جامداً في مكانه.

كانت مستلقية على مقعد خشبي مستطيل متوسدة ذراعها، وقد لفت تنورتها حول ساقيها باحكام، كان شعرها الأشقر منسدلاً. ترتجف من البرد وفي نفس الوقت مستغرقة في النوم.

خطر له ان يستدير عائداً من حيث أتى، فهي لا بد ستثور

غضباً عندما تستيقظ، شاعرة بكرامتها المجروحة، وهو لن يلومها، حتى انه اعدّ نفسه لتلقي هجوم هستيري عنيف كان واثقاً من حدوثه، لكنه لم يكن جباناً، كما ان الفضول كان يتملكه لكي يرى وجهها، فذلك الرسم التخطيطي لها مازال في ذهنه. في الواقع، كان يريد ان يتخلص من صورتها البريئة المرتسمة في ذهنه. تنفس بعمق، تقدم إلى الأمام ومضى ينظر إليها، كان جانب وجهها يظهرها طفلة بريئة، لكن عندما انحدرت نظراته إلى جسمها، إذا بالطفلة البريئة تستحيل إلى امرأة جميلة، هذا ما كانت قالته دودي في رسالتها، وكانت على صواب، فالفتاة نحيفة الخصر متناسقة، يظهر ذلك بوضوح من استلقائها على هذا المقعد. نظر إلى يديها الصغيرتين، لا شك ان هذه هي كاسي، دفع قبعته إلى الخلف وعاد ينظر اليها مطولاً.

لكنه ما لبث أن حدّث نفسه بأن عليه ضبط مشاعره إلى أن يعرف الفتاة جيداً، وإلا قد يجد نفسه في النهاية وبعد الزواج منها، ان لا شيء يعجبه فيها سوى مظهرها، ومن ناحية أخرى، قد لا يعجبها هو ولا هذا المكان.

مد يده ليلامس وجهها، لكنه كان اكثر حكمة من ذلك فأرجعها. لكن عليه ان يوقظها سواء عاجلاً أم آجلاً، فتنحنح. لكن شيئاً لم يحدث، فمد يده ليهزها من كتفها، وحبس انفاسه والأهداب الشقراء ترتفع ببطء لتتسمر عليه، عينان خضراوان صافيتان.

قالت بعد لحظة وهي تجاهد للجلوس: «آه، انا آسفة، اظن النوم غلبني و...»

انها آسفة... وهو الذي تأخر عنها ساعات وساعات،

لكنها هي الآسفة، فحوّل نظراته بعيداً شاعراً بالذنب، وبدا في عينيها القلق، لكنه أسرع ليبدد ذلك قائلاً: «عليّ انا تقديم كل الأعذار، لقد تعطلت سيارتي في وسط الطريق، وجهاز كنت قد نسيته في البيت.»

«آه، فهمت، حسناً، لقد حصل أمر طارىء، أليس كذلك؟» ابتسمت له، وكانت اسنانها بيضاء مستقيمة ما عدا واحداً منها في الفك الأسفل كان مائلاً قليلاً.

ادرك فجأة انه كان يحملق فيها، ورفع يده يحك عنقه من الخلف لكي يجد عذراً في تحويل نظراته، ثم تمتم يقول: «وانت، انت لا بد انك تشعرين بتعب بالغ.»

أومأت وهي تنظر إلى يديها بارتباك: «اظن ذلك، لم اتوقع وانا مستلقية هنا، ان يغلبني النوم، كان الأمر وكأنه...» ثم هزت كتفيها وأضافت: «حسناً... المكان مقفر كما ترى... لا احد هنا.»

«اسمعي، انني شديد الأسف، لم يكن باليد حيلة، فقد تعطلت الشاحنة في منتصف الطريق بين البيت والمدينة هذه، وكنت قد نسيت الجهاز اللاسلكي الذي يمكنني المخابرة به، نسيته في البيت.»

فقالت ضاحكة: «وهكذا استسلمت للأمر وبدأت باصلاح الشاحنة.»

بسط يديه قائلاً: «لم يكن أمامي سوى هذا.»

اتسعت ابتسامتها: «لو كان والدي في مكانك أو نيوت أو أي شخص أعرفه ما عدا...»

بهتت ابتسامتها فجأة لكنها أسرعت بالقول: «حسناً، كنا جميعاً ما زلنا نسير على الأقدام.»

فهم ما تعنيه، وقال شاعراً بالزهو: «آه، نعم... اظنني بارعاً في استعمال الأدوات.»

ضحكت، وشعر بنفسه ماهراً اكثر من المعتاد، فتابع يقول: «لم اكن استطيع ان اصل قبل الآن، ولكن كان بامكاني ان استدعي شخصاً ليأتي لاستقبالك بدلاً من أن تبقي هنا وحدك.»

اومأت برأسها قائلة: «لا بأس، لا اظنني كنت من الخوف كما كنت أخشى، ويبدو انني استغرقت في النوم على الفور.» اخذت تدعك ذراعيها بيديها فأدرك انها تشعر بالبرد رغم بزوغ الشمس.

قال: «فلنذهب ونتناول الإفطار.»

قالت باسمة: «هذا عظيم، فأنا جائعة حقاً.»

ابتسم لها بدوره. ونهضت واقفة، لكنها ما لبثت ان تعثرت وأوشكت على السقوط على المقعد لولا ان اندفع يسندها بيديه، لكنه سرعان ما اطلقها من بين يديه وقد انتابه شعور غريب. لم يعرف هل كان اجفالها لامساكه لها بهذه القوة، أم لأنه خشي عليها من السقوط. ازدرد ريقه ثم اخذ يتفرس في عينيها محاولاً ان يفهم مشاعرها ثم سألها: «هل انت بخير الآن؟»

«نعم، شكراً.»

جذب قبعته إلى الأمام، قائلاً: «هيا بنا، إذن.»

سارت معه وإذا بها تلتفت إلى الخلف فجأة لتقول: «أمتعتي.»

التفت بدوره لتقع نظراته لأول مرة على صندوق الكرتون وحقيبة الثياب اللذين كانا تحت المقعد، عجب لقلة الأمتعة

التي احضرتها معها، أتراها لم تكن تنوي البقاء طويلاً؟ قطب جبينه محاولاً ان يتخلص من هذه الأفكار وهو يقول لها: «لا بأس على امتعتك حالياً، فلن يأخذها احد وسأنقلها إلى الشاحنة فيما بعد.»

تقبلت كلامه هذا دون اعتراض، ثم تابعت السير بجانبه إلى باب المطعم القائم في المنعطف.

كان أول زبائن النهار، وكان عليه ان يطرق الباب لكي ينبّه صوفي إلى فتح الباب لهما، جاءت هذه من المطبخ مسرعة، وهي تهتف تحييه: «ليون.» نظرت إلى مرافقته وقد لمعت عيناها السوداوان وهي تتابع بلكنة اسبانية: «من هذه التي معك؟» ودون ان تنتظر الجواب، مدت يدها إلى كاسي تصافحها: «انني صوفي، يسرني التعرف اليك.»

وضعت كاسي يدها الصغيرة في يد المرأة وهي تقول: «وانا كاسي هانتر، من غرب فيرجينيا.»

نظرت صوفي إلى ليون بدهشة: «آه، ان لديها لكنة في اللغة.»

ضحك ليون وقال: «أليس كل شخص كذلك بالنسبة اليك؟»

قالت: «ولكن ليس لديك انت.»

قال وهو مايزال يضحك، مبالغاً في مط الحروف: «أليس هذا ما اعتدت انت قوله.»

تركت يد كاسي ووضعت يديها على خصرها قائلة: «كان هذا قبل ان تصبح لغتي الانكليزية جيدة.»

نظر ليون إلى كاسي وهو يقول متهكماً: «اسمعي، انها تقول ان ذلك كان قبل ان تصبح لغتها الانكليزية جيدة.»

رفعت صوفي يديها تهم بضرب ليون على رأسه ممازحة، فتصنّع هو الخوف مبعداً رأسه ضاحكاً، استدارت صوفي مبتعدة رافعة رأسها بكبرياء وهي تقول له من فوق كتفها: «لأجل كلامك هذا، عليك ان تسكب القهوة بنفسك.»

صاح بها من خلفها: «ماذا؟ ألا تريدين ان تريقي القهوة على ركبتي مرة أخرى؟»

رفعت صوفي رأسها بكبرياء ثم دخلت المطبخ بينما اخذ ليون يضحك وهو يقود كاسي بمرفقها إلى مائدة في الزاوية حيث جلسا بعد ان علّق قبعته على المشجب.

سألته كاسي: «هل فعلت ذلك حقاً؟»

«اتقصدين سكب القهوة على ركبتيّ؟ نعم، وكان الذنب في ذلك ذنبي، فقد كانت تقف قربي وفي يدها إبريق القهوة بينما كنت انا أمسك لها الفنجان، وأثناء ذلك كنت أتحدث إلى صديق معي، إذا بي أنسى ما كنت افعل، فوضعت الفنجان على المائدة في نفس اللحظة التي ابتدأت هي فيها بسكب القهوة.»

رفعت كاسي يدها إلى فمها وهي تهتف بعطف: «آه، كلا...»

أجاب ضاحكاً: «لم يكن الأمر سيئاً في الواقع، لأنني ما ان خلعت السروال حتى قذفني الصديق الذي كان معي بكوب ماء بارد.»

رأت الكذب في عينيه فأخذت تضحك قائلة: «آه، كلا، انك تؤلف هذه القصة.»

ضحك: «لقد قذفني بالماء، في الواقع، قبل ان افك حزام

سروالي، وقد شعرت بالبرد الشديد، ولكن تصوريني وأنا أسير بسروال مبتل.»

«وهكذا لم تدع صوفي المسكينة تنسى هذا.»

فهز رأسه ضاحكاً: «هل أسكب لك فنجاناً؟ اعدك بأن لا أريقه على ركبتيك.»

قلبت شفتيها وهي تحول نظراتها عنه: «انني، في الحقيقة لا اشربها مطلقاً.»

فسألها: «هل تريدين إذن شيئاً آخر؟»

فنظرت إليه بخجل: «زجاجة عصير؟»

ضحك قائلاً: «بكل تأكيد، حسناً.» ثم نطق باسم نوع شائع من الشراب المنعش.»

أومأت وهي تهمس: «هذا حسن شكراً.»

«ان صوفي تقدم افطاراً دسماً تماماً، عجة، لحم...»

«هذا حسن، ولكنني لا استطيع ان آكل كل هذا.»

«اتريدين العجة فقط؟ أم ربما تريدين شيئاً آخر؟» كان اهتمامه البالغ يخجلها. ولم يكن هو يريد ذلك، فوقف قائلاً: «سأحضر قائمة الطعام.»

قالت له وهي تبتسم بخجل: «العجة مناسبة تماماً.»

أومأ بصمت، ثم اتجه نحو المطبخ وقد استولت على افكاره، يا لها من امرأة. لقد كان على وشك القيام بعمل أحمق نحوها، شاعراً بعدم القدرة على المقاومة، لقد جاءت إلى هذا البلد للتعرف عليه والبحث معه في امكانية الزواج، فهو لا يريد ان يخيفها بسلوكه، أو يترك لديها انطباعاً سيئاً عنه.

عليه ان يهدىء من احساسيسه قبل ان يفسد كل شيء،

وذلك بأن لا يقرب منها كثيراً، وهذا لن يكون سهلاً حين يكونان في منزله الصغير، ومن ناحية أخرى، كيف سيتمكن من معرفة هذه المرأة إذا هو لم يأخذها إلى مزرعته بارادايس؟ ولماذا لم يفكر في ذلك من قبل؟

أسرع ليغسل يديه ويعطي أوامره لصوفي، ان لديه مشكلة وعليه ان يجد لها حلاً بسرعة.

www.elromancia.com

الفصل الثاني

تناولت كاسي بالشوكة قطعة من العجة المكونة من البيض والجبن والبصل والفلفل الأخضر وهي تبتسم لليون بارادايس، ثم أخذت تمضغها. فجأة اشتعل فمها وامتد الحريق إلى حلقها. ثم أخذت تسعل بأكثر ما تستطيعه من الحذر. وامتلأت عيناها دموعاً بينما فمها مملوء بالبيض والجبن والبصل والفلفل. تجمدت يد ليون قبل أن تصل إلى فمه، ونظر إليها باهتمام: «ماذا حدث؟»

اومأت برأسها وابتسمت بضعف ثم ابتلعت الطعام بسرعة تمتمت والدموع تنهمر على وجنتيها: «لا شيء.»

وضع الشوكة من يده ثم دفع إلى يدها بكوب الشراب المنعش: «الطعام حار قليلاً، أليس كذلك؟ كان يجب أن أنبهك إلى ذلك. كان عليّ أن أحذر صوفي، في الواقع، من أن تسترسل في وضع الفلفل. قد لا يكونون معتادين في فرجينيا على الطعام الذي نأكله هنا في تكساس. آسف إذ لم أفكر في ذلك.»

أخذت تعب من الكولا وهي تقول: «إنه لذيذ. حار ولكنه شهي.»

«سأذهب لاحضار شيء آخر لك.» ولكنها لم تشأ أن تجعله يراها تميل إلى الدلال.

يكفي سوء تأثيرها عليه لغاية الآن، فنومها على مقعد خشبي عمومي، ثم جلوسها هنا بثوب ترتديه منذ ثلاثة أيام،

دون أن تغسل يديها ووجهها بالماء، وكذلك شعرها دون تسريح، فقد كانت آخر فرصة لها للغسل وتسوية مظهرها، في استراحة السيدات في آخر مطعم توقف الباص أمامه، كان يخيل إليها أن هذا حدث منذ أجيال. وإذ رأته يقف محاولاً الذهاب أمسكته بمعصمه بشدة نظر إليها مجفلاً للحظة، ثم هدأ بينما كانت هي تتنحنح قائلة: «صدقني، الطعام يعجبني.»

نظر إلى يدها التي تتشبث بمعصمه، ثم رفع بصره إليها. كانت له أجمل عينين رأتهما. كانتا رقيقتين صافيتين بنيتي اللون. كانت أهدابه داكنة كثيفة، كما كانت في زاويتي عينيه تجاعيد تدل على كثرة الابتسام. ولكن شعره كان بنياً وعلى شيء من الطول ما يجعله يصل إلى ياقته من الخلف.

أخذت تتصوره وهو صبي صغير قد تجمع شعره فوق جبهته وانتشر النمش فوق وجنتيه وأنفه، لا بد أنه كان صبياً ظريفاً للغاية ما دام يبدو الآن رجلاً حسن المظهر. لم يكن وسيماً حقاً، حيث أن ملامحه كانت حادة مستقيمة نوعاً ما. لكنها تنضح رجولة وقوة رغم عينيه الرقيقتين، كما أنه جذاب للغاية. كما أن بإمكانه أن يكون بالغ العنف إذا غضب. لكن بإمكانه أن يجعل قلبها يخفق كذلك، وكان هذا يحدث الآن فعلاً. كأنما انتابه هو نفس الشعور، فقد أغمض عينيه ثم أخذ يبعد يدها عن معصمه بلطف، شعرت هي لذلك وكأنه صفعها على وجهها. أتراه ينزعج من لمسها له؟ تملكها الاكتئاب لهذه الفكرة، ليس لأنها كانت بحاجة ماسة إلى أن يتزوجها، وإنما لأنه قد أعجبها فعلاً.

أمسك بقرص مستدير بلون بني ثم ناولها اياه قائلاً: «كلي هذا.» لم يبد لها شهياً، لكنها عندما قضمت قليلاً منه، اعجبت به، فقالت: «هذا لذيذ. ما الذي في داخله؟»

أجاب: «دقيق، قطع لحم، وقليل من الماء، كما أظن.»

«إن مذاقه شهي جداً رغم أن ليس به مواد كثيرة.»

«هذه طريقتهم هنا.. يستعملون القليل من المواد والكثير من الطرق. أظنه طعاماً مكسيكياً.»

قالت وهي تعود إلى العجة مبعدة منها قطع الفلفل: «يبدو وكأنه اكتفاء ذاتي تماماً.»

قال: «هذه هي طريقة الحياة هنا. الاكتفاء الذاتي، وإلا فسرعان ما ستجدين نفسك وقد غمرتك المشاكل.»

أخذت كاسي تزدرد طعامها ببطء. كان ما يزال حاراً، ولكنه من دون الفلفل لم تجد له لذعاً داخل فمها. لم تعتد من قبل أكل الفلفل مع الافطار، لكنها رأت أن بإمكانها الاعتياد على ذلك. ما لبثت أن صرفت أفكارها عن العجة، عائدة إلى الحديث، فسألته: «أي نوع من المشاكل؟»

أجاب: «ضربة شمس مثلاً، مجاعة، عطش، تحطم العظام، لدغ الأفاعي...»

فوضعت الشوكة من يدها وهي تقول: «إنها أخطار كبيرة.»

فأومأ برأسه: «نعم. وأمثالنا الذين يعيشون في مزارع الدواجن هم بعيدون أميالاً وأميالاً عن أي نوع من الرعاية الطبية. فهذه مناطق نائية، إن لدينا الآن، بالطبع، اتصالات أفضل. راديو بأمواج قصيرة وشركات إذاعة. وهاتف خليوي. هذا كله حسن، ولكن المرء ما زال عليه أن يعتمد على

نفسه هنا، خصوصاً وهو يمتطي صهوة الخيل. السيارات هنا غير مضمونة أيضاً. وقد حدث مرة لشخص هنا أن كان يسوق شاحنته فصعد بها إلى مرتفع كان يظنه صخرياً، وإذا به رملي، فانهارت شاحنته وأصيب هو بكسور بليغة في ساقيه وأضلعه. لقد استطاع الوصول إلى الراديو حيث تمكن من القيام بالاتصال بصديق. وما لبثنا أن تجمعنا وخرجنا للبحث عنه. لم نجد مكان الحادثة إلا بعد ست عشرة ساعة.»

مالت كاسي إلى الأمام ناسية طعامها لتسأل: «وماذا حدث؟»

«وضعناه في مؤخرة الشاحنة، ثم توجهنا به إلى المستشفى في الباسو.»

«الباسو؟ أين تكون...»

أجاب: «إنها بعيدة عن هذا المكان مسافة مائة وخمسة عشر ميلاً.»

فتحت فمها ذاهلة: «أليس ثمة مكان أقرب؟»

«آه، لدينا جراح، وهو ماهر تماماً، أيضاً، ولكن ليس هناك أدوية فعالة.»

أخذت هي تفكر... ساعتان ونصف! لكنها عادت فتذكرت أنها في بلدها كانت تسير مسافة ثلاثين ميلاً على قدميها وذلك مسافة الطريق ذهاباً وإياباً إلى حيث تنال أي عناية طبية. مع ذلك، أخذت تتساءل عن هذا الوضع الذي ألقت بنفسها فيه. لكن هذا لم يعد مهماً، فقد أصبحت هنا ولا يمكنها العودة.

ليس عليها سوى أن تحاول الحصول على الأفضل في هذه الظروف، والأفضل هو ليون بارادايس.

كان رجاؤها هو أن تكون أعجبته بقدر ما أعجبها حتى الآن. فقد بدا لها رجلاً في غاية الكفاءة. لكنه مرغم على أن يكون كذلك إذا كان ما يقوله عن المعيشة هنا صحيحاً، وهذا ما لا تشك فيه. فليون باراديس ليس من نوع الرجال الذين يثيرون الشكوك. شعرت لرأيها هذا فيه، برضى عميق. انها تشعر معه بالأمان، فهو ليس كفؤاً فقط، بل كريماً وماهراً كذلك. هو، فوق ذلك، رفيق حسن. حسب ظروفها لا يمكنها أن تطلب أكثر من هذا. يا ليته فقط يحبها إلى درجة القبول بها... وبالغلمان. وإذ شعرت بقلبها يخفق، أبعدت عن ذهنها التفكير في الغلمان، وركزت اهتمامها على طعامها حيث أخذت تبعد من العجة قطع الفلفل بكل عناية.

بعد ذلك بعشر دقائق، أبعد ليون من أمامه طبقه، وملأ فنجان قهوة آخر، ثم استند إلى الخلف يتفرس فيها. شعرت هي بنظراته على وجهها، لكنها حولت عينيها عنه لا تريد أن تظهر ضيقها من ذلك. وعندما رشفت آخر قطرة من كوب الشراب المنعش، وضع فنجان قهوته ثم مال إلى الأمام، قائلاً برقة: «إن علينا أن نصمم على شيء ما.»

رفعت بصرها إليه: «نصمم؟»

أخذ يمرّر أصابعه على حافة فنجانه وهو يقول: «لا أدري ما الذي كنت تتوقعينه في مجيئك إلى هنا بهذا الشكل. كما أنني أنا أيضاً لا أدري ما الذي كنت أتوقعه. أو بالأحرى ما الذي لم أكن أتوقعه. هذا هو الأمر.»

رفع بصره إليها، فلم تحاول إخفاء حيرتها، لكنه اخفض نظره إلى الفنجان، متابعاً: «الذي أعنيه هو انني لا أريدك أن تظني أنني أتوقع أكثر من أن نزداد معرفة ببعضنا البعض، و...»

تنحنح، وغير جلسته، ثم قال فجأة: «هناك صديقين يمكنك الاقامة معهما، إنهما ويندل ونادين موث. وهما زوجان كبيران في السن. منذ أيام فقط كانت نادين تتحدث عن مبلغ افتقادهما لابنتهما منذ كبرت وانتقلت من هنا. وسيسرون بك كثيراً.»

غاص قلب كاسي، إنها لم تعجبه. فهي ليست كما كان يأمل. لقد أصيب بخيبة أمل. ووضعت رأسها على يدها متكئة بمرفقها على المائدة، تفكر بالأمر. فهي بإمكانها أن تتغير، إنما هي بحاجة إلى فرصة تستنتج فيها ما يريد، فتجعل نفسها مقبولة منه.

قالت برقة: «كنت أظن أنني سأقيم معك.»

رفع رأسه بسرعة، وفتح فمه، ثم عاد فأقفله. ثم رفع يده يحك خلف أذنه، قائلاً: «حسناً، إن منزلي منعزل تماماً، وصغير أيضاً.»

هزّت كتفيها دون مبالاة قائلة: «لا مانع لدي. فأنا معتادة على البيوت الصغيرة وما أشبه.»

«إننا سنكون وحدنا. بالنسبة إلي، فأنا أغيب طوال اليوم في العمل. وقد تشعرين بالوحدة.»

قالت: «يمكنني المعاونة خارج المنزل. فأنا قوية ومعتادة على العمل الشاق. في بلدي أقوم بغسل الثياب بيدي على لوح الخشب في حوض خلف المنزل، كما أننا نحتطب بأنفسنا و...»

رفع يده يسكتها: «أنا... أنا لا أريد منك أن تقومي بأي من هذه الأعمال. فأنت لم تأتِ إلى هنا لكي تعملي. إنك هنا بصفتك... ضيفة.»

فقالت: «ولكن هذا غير صحيح. فأنا لم أقطع كل ذلك الطريق لكي أرى إن كنت أصلح رفيقة، بل أريد أن أرى إن كنت أصلح... شريكة.»

شعرت بنفسها تحمر خجلاً. ولكنها لم تخفض بصرها. وكذلك هو. ولكنه رفع يده يفرك عنقه، ثم قال: «إن لدي غرفتي نوم. إن كان بإمكانك أن تمكثي في إحداهما إلى أن... أعني، هذا إذا...» وتلعثم وهو يتابع: «إنه بيت قديم، وبحاجة إلى دهان وملحقات. كنت أنوي أن أقوم بذلك. فهو منزل قوي البناء ويحتوي على الكهرباء وغير ذلك. ولكن لا يوجد ماء ساخن، انما بالامكان شراء سخان وتركيبه. كنت أنوي القيام بذلك أيضاً. إنني أرحب بك، ولكنني أنبهك فقط. لأنك قد تشعرين بالوحدة.»

ثم ضاقت عيناه وهو يميل إلى الأمام: «وبالمناسبة، أظنك لا تحسنين ركوب الخيل أليس كذلك؟ إذ لو كان هذا لخرجت ولو للنزهة.»

أجابت: «كلا، ولكنني لا أخاف من الركوب. كما أنني أحب جداً أن أتعلم ذلك.»

مسح وجهه بيده: «حسناً، بالنسبة لهذا، سأتولى ذلك، إنما الآن، ألأفضل أن أذهب إلى المزرعة وحدي. ليس لأنني لا أرغب في مرافقتك أو مساعدتك، بل لأنني لا أريد أن يحدث لك شيء.»

شعرت بخيبة الأمل، ولكن ماذا بإمكانها أن تقول؟ فحنت كتفيها باحباط قائلة: «لا بأس يا ليون، كما تشاء.»

سألها: «هل أنت واثقة من أنك لا تمانعين في قضاء النهار وحدك؟»

فكرت في ابنها وأخوتها، واضطرت إلى القول: «لا أمانع.»

فقال برقة: «هذا ما أرجوه.» ثم عبس قائلاً وهو يلقي بيديه على المائدة: «اسمعي يا كاسي. إنني لا أدري ما الذي سيحصل معنا، ولا أنت تدرين. لا أحد منا يعلم، ولكنني سأقول لك هذا. إنك، شكلاً، أجمل من أي امرأة عرفتها، وأنا لا أكذب عليك.» ونظر في عينيها برقة زائدة.

ابتسمت وقد تملكها الأمل والشعور بأنها محظوظة.

فكرت في أنه عليها أن تخبره عن ابنها وأخوتها كما وأن تخبره بصراحة بأن ليس لديها مكان آخر أو شخص تذهب إليه. لكن ما زال خطر تراجعه عنها، كبيراً. بينما كانت وعدت الأولاد بأن ترسل بطلبهم للمجيء، هم الستة جميعاً. وهكذا كبحت رغبتها في الكلام.

قال ليون برقة: «لم أكن قد سبق وخططت لجعلك تقيمين مع آل موث. حتى انهم لا يعرفون عنك شيئاً. لقد فكرت أن هذا هو أفضل الحلول إلى أن نرى ما سيحدث بالضبط. كل ما في الأمر هو... حسناً، حيث انني الآن لدي...» رفع حاجبيه وأخذ نفساً عميقاً ثم تابع يقول: «إن فيك جاذبية قوية للغاية، يا كاسي. وأنا لا أريد أن أقوم بأي شيء قد... يدمر حظنا.»

سرى الارتياح في كيانها. لم تشأ التفكير في شيء مطلقاً. ذلك أنها، ولأول مرة منذ سنوات تعرف الأمل الحقيقي. في تلك اللحظة أدركت أنها لن تخبر ليون أي شيء قد يدمر حظهما كما قال.

فقالت: «هل يمكننا الذهاب الآن؟»

ارتسمت على وجهه ابتسامة وهو يقول: «سنذهب حالما أدفع الحساب.»

* * *

كانت أروع أرض رأتها قط، الجبال تحدق بها من كل جانب، ولكن من دون الغابات الكبرى والوديان العميقة التي في موطنها. فسلسلة الجبال هذه هي صخرية وعرة يفصلها عن بعضها البعض وديان رملية مسطحة واسعة تنتشر فيها مساحات تغطيها الأعشاب ونوع من النبات يدعوه ليون باسم كوكوتيلو. لم يكن هناك أشجار ولا كروم... لم يكن هناك سوى سماء وفضاء، ما يجعل الانسان يشعر بالضآلة والتواضع، لكن في الوقت نفسه يشعره بالحرية.

أثناء انطلاقهما نحو المزرعة، وضع ليون في المسجل شريطاً موسيقياً، ولم تكن موسيقى رعاة البقر لتختلف كثيراً عن موسيقى الجبال في موطنها غرب فيرجينيا. لم تكن تظن أن رعاة البقر العصريين يهتمون إلى هذا الحد بالشاعرية في الحب وتحطم القلوب، أو حفلات استعراض الفروسية والنوادي الليلية. لم تكن الأغاني هنا حزينة تندب فاجعة الموت، أو تمجد جمال الطبيعة كلا ولا أغاني تعيب ظلم الناس. بل كان هناك الكثير من الأغاني الراقصة وتلك التي تتحدث عن الذكريات. والأغرب من ذلك كله هو أنه كان يبدو أن ليون يحفظ كل تلك الأغاني عن ظهر قلب. كان له صوت لا بأس به لم يكن يشعر بالحرج مطلقاً من استعماله. كان يجيبها على كل سؤال توجهه إليه عن البلاد أو عن

المزرعة. ثم يوجه إليها بدوره سؤالاً عن بلدها أو رحلتها. لكنه كان يمضي أكثر الأوقات في الغناء مع الموسيقى بينما هي تتفرج على المناظر التي تمر بها.

كان الجو دافئاً وثمة مكيف هواء في الشاحنة، فما دامت النوافذ مقفلة كانت هي مرتاحة. كان يقود الشاحنة بسرعة غريبة، لا يتمهل إلا عند المنعطفات، والتي لم يصادفا منها سوى اثنين بين مدينة فان هورن والمزرعة. كانت الثانية منهما تقود إلى طريق ترابي، فكان الغبار يتطاير خلفهما، ولكن النوافذ بقيت مقفلة وكذلك مكيف الهواء.

بعد مغادرتهما مدينة فان هورن بساعة تقريباً، استدار حول نهاية سلسلة جبال ثم اتجه نحو مجموعة غير منتظمة من المباني والأسيجة. استقامت كاسي في جلستها، بينما توقف ليون عن الغناء وقال مشيراً إلى ذلك المجمع: «هذه هي بارادايس.»

سألته: «هل هي تبدأ هنا؟»

قهقه ضاحكاً ثم اومأ برأسه قائلاً: «كلا، بل هي ابتدأت عند أول سياج مررنا به.»

حملقت فيه: «أهي تبتدىء من ذلك المكان البعيد؟»

أجاب مشيراً إلى يمينه وشماله: «وتبعد أيضاً نفس المسافة إلى الناحيتين.»

فتحت فمها ذاهلة.

فاتكأ بمرفقه على النافذة وقال ضاحكاً: «هذا هو شعوري نحوها، أنا أيضاً. أحياناً أسرح نظراتي في كل هذه الأنحاء، متسائلاً عما إذا كان الأمر مجرد مزاح، وأن ثمة شخصاً يرتدي بذلة أنيقة سيأتي إلي ليقول إحزم

أمتعتك، يا ليون، واضرب لنفسك خيمة في المدينة. ليس مسموحاً لأحد بأن يملك كل هذه الأرض. ان ثمة من يملك أكثر. ولكن هذه القطعة هي ملكي أنا وسأحارب للاحتفاظ بها.»

فقالت: «ما أروع ذلك. إنني لم أملك شيئاً حتى كوخي الذي عشت فيه. لكن لو كان ذلك، لكانت مشاعري نحوه كمشاعرك نحو مرزعتك.»

قال باسماً: «إننا متفقان في الرأي.»

ابتسمت هي أيضاً، فمكان كهذا لا بد أن يتسع لستة غلمان. هي واثقة من أنهم سيعشقون العيش هنا، وسيتفقون في هذا مع ليون.

استمعت إليه وهو يشرح لها مشيراً إلى مختلف الأبنية. كان هناك أولاً البوابة الكبرى، والمؤلفة من قسمين توجا باسم المزرعة بأحرف حديدية يبلغ الحرف الواحد منه القدم طولاً. خلفها كان هناك فناء واسع فارغ للماشية وبعده فناءان أصغر حجماً يحيطان بمخزن غلال كبير من المعدن ذي لون باهت الزرقة. كان ثمة حصان يقف في زاوية أحد الفناءين وهو يأكل. وكانت هناك طاحونة هوائية تضخ الماء إلى ساقية داخل أفنية الماشية. وطاحونة هواء أخرى أطول منها ذات خزان ضخم مستطيل ملحق به أنبوبان يرتفعان بين قوائمه بجانب بناء صغير مربع هو البيت. كان سطحه المائل قليلاً مصنوعاً من الخشب. وكان أنبوب السخان يدخل من خلال ناحية منه، والصحن الفضائي الذي قال ليون عنه أنه لأجل الهاتف، كان يدخل من خلال الناحية الأخرى. كان الزمن وعوامل الجو قد أتلفت دهان الجدران. اما زجاج

النوافذ القليلة فكان عادياً قذراً، وقد تساقط الدهان من أطره. كان الفناء تغطيه الرمال ولا شيء غير الرمال. كان المنزل يبدو، رغم الصحن الفضائي، وكأنه مبني في القرن الماضي، هذا بينما كان مخزن الغلال وأفنية الماشية والمطحنتان الهوائيتان والخزان، تلك كلها كانت جديدة تماماً.

أوقف ليون الشاحنة على بعد خمسة أقدام من واجهة الباب، ثم نزل إلى حيث أخرج من مؤخرة الشاحنة حقيبتها والصندوق الكرتوني. خرجت كاسي بدورها بينما اتجه هو نحو الباب فدفعه بكتفه واختفى في الداخل. تبعته متهملة وقد ازداد الآن شعورها بحرارة الجو وظللت عينيها بيديها من وهج الشمس وهي تنظر حولها. كانت ألواح خشبية ملقاة على الأرض حول المنزل وتحت طاحونة الهواء. رأت ذلك غريباً، لكنه ليس بغرابة المنزل نفسه.

صعدت إلى الظل تحت سقف واجهة المنزل وهي تشعر بالانكماش إزاء صرير حذائها الخفيف على الخشب. لقد كان كل صوت يبدو متضخماً في وسط هذا السكون الشامل، حتى لتكاد تسمع صوت الريح وكذلك صوت خطوات ليون داخل المنزل من الباب المفتوح. بدا لها أن لا شيء هناك أفضل من الظل في الداخل.

ظهر ليون من خلال باب أسدل عليه ستار.

قال لها وهو يشير إلى غرفة خلفه: «لقد وضعت أمتعتك هناك.» ثم وقف جانباً وهو يشير إلى باب آخر في نفس الجدار، المطبخ هناك والحمام خلفه. ثم أشار إلى باب أسدل عليه ستار، وتلك هي غرفتي، ولها باب على المطبخ أيضاً. هذا كل شيء، فاعتبري نفسك في بيتك.

شكرته ودخلت تنظر إلى الغرف، ثم أخذت تنظر إلى الغرفة التي كانت تقف فيها. كانت مساحتها حوالي الأربعة أمتار مربعة أو أكثر قليلاً. الجدران بيضاء قذرة تعترضها أشرطة كهربائية سوداء تنتهي في صناديق خشبية مفتوحة. كان هناك بساط بيضاوي الشكل بني اللون يغطي معظم الأرض القرميدية. أما الأريكة، والتي كان الراديو المنسى ما يزال فوقها، فقد كانت برتقالية اللون خشبية القوائم والذراعين، من ذلك الطراز القديم الذي يصبح سريراً للنوم. إذا ما خفض مسنده ليصير في مستوى المقعد. أما المقعد الهزاز المنخفض فيناسب الأريكة تلك بطرازه، إنما ليس بلونه والذي كان أخضر يغطيه لحاف قديم. كان برميلان صغيران فارغان قد جعلا بمثابة منضدتين جانبيتين لتقديم القهوة عليهما، واحد بجانب الأريكة وآخر بجانب المقعد الهزاز. المصباح الوحيد في الغرفة وهو معدني مدهون باللون الأصفر فوقه مظلة معدنية، قد نصب عند أحد جانبي الأريكة. كما كان بجانبه عدة مجلات تبحث في شؤون الماشية وتربية الخيل.

أما الجدار الذي كان يفصل بين الغرفة ومدخل الباب فقد كان مغطى بالرفوف من حافة الباب إلى الزاوية. كان عليها عدد من الكتب وجهاز ستيريو مع راديو ومسجل، هذا إلى مجموعة كبيرة من أشرطة التسجيل. ولم يكن في الغرفة نوافذ ما عدا تلك التي في الباب الأمامي.

لكن كاسي كانت ألقت نظرة إلى داخل غرفة ليون، وأخرى إلى غرفتها هي. كانت الغرفة منهما تفتقر تماماً إلى ذوق امرأة. أخذت تتصور الجدران والأشرطة مصبوغة

باللون الأصفر الباهت وتزحف فوقها نبات اللبلاب. أما الأثاث فتغطيه أغطية زرقاء قد انتشرت فوقها وسائد برتقالية موشاة بأشكال هندية. إن بإمكان نيوت أن يقوم بذلك...

تنحنح ليون واتكأ على الجدار وقد شبك ذراعيه فوق صدره: «حسناً؟»

ابعدت أفكار الزخارف عن ذهنها، والتفتت إليه بوجه باسم، قائلة: «إنه ليس أصغر كثيراً من منزل والدي، وقد يكون أوسع من المنزل الذي كنت أعيش فيه مع جوزيف. لكن بناءه أكثر متانة وصلابة من الاثنين. إنه قديم البناء، أليس كذلك؟»

«نعم، كما أن أثاثه ليس جديداً، كذلك فالشخص الذي اشتريته منه قال إنه كان شيّد في العشرينات من هذا القرن. أما تبليط الأرض والمطبخ والحمام فقد أضيفت إليه فيما بعد. وضعت أنا المولد الكهربائي بنفسي. إنني أديره في الأماسي عندما أريد أن أستمع إلى الموسيقى أو أقرأ أو... حسناً، ليس هناك الكثير أعمله غير هذا...» قال ذلك بشيء من الخجل وهو يدعك عنقه.

أومأت برأسها قائلة: «هذا جميل. أتريد الحقيقة؟ أنا أفضل النوم باكرة... هذه الليلة على كل حال.»

فقال: «آه، نعم. لا بد أنك مرهقة للغاية اسمعي، إن لدي عملاً علي القيام به. وهكذا يمكنك الاستراحة فترة. هنالك طعام في القبو تحت أرض المطبخ إذا شعرت بالجوع.»

سألته برجاء: «هل هنالك ازعاج إذا أنا اغتسلت أولاً؟»

أخذ يعتذر إليها لعدم وجود ماء ساخن في الحمام، لكنه

طمأنتها إلى أن الماء ليس بارداً جداً. ثم أراها مكان المناشف النظيفة، قائلاً إن هناك غسالة على الشرفة الخلفية إذا أرادت أن تغسل ثيابها. فطمأنته إلى أن بإمكانها أن تقوم بذلك بيديها، وأخبرها أن تعلقها على الحبل الممتد خلف المنزل، وهي ستنشف في خلال ساعة، ذلك بفضل جو الصحراء.

بينما كانت تختار من حقيبتها ملابس نظيفة، كان ليون قد استبدل ملابسه بملابس العمل. بنطلون جينز حائل اللون، حذاءً طويلاً، قميصاً طويل الكمين، وقبعة قش. قال إنه سيعود باكراً ليعد العشاء رافضاً بعناد تبرعها بأن تقوم هي بهذا العمل، قائلاً: «فيما بعد. عندما تحصلين على نوع من الراحة والاستقرار.» ووضع قفازين جلديين في جيبه الخلفي، ثم خرج تاركاً إياها تزيل عنها غبار رحلتها الطويلة.

كان واضحاً أن الحمام قد أضيف مجدداً إلى المنزل. ربما منذ خمسين عاماً. فقد كانت طريقة بناء الجدران تختلف عنها في بقية جدران المنزل كما أن الأرض والسقف كانا من الخشب.

وضعت ملابسها النظيفة جانباً. ثم أخذت تملأ الحوض بالماء. بدت المياه في البداية صدئة نوعاً ما، إلا أنها ما لبثت أن راقت وصفت. أغلقت الباب والذي كان دون قفل، ثم شعرت بأنها آمنة تماماً. حتى ان ليون ليس في المنزل، حتى ولو كان، فهي لا تظن انه من المعقول أن يدخل الحمام إليها. كان الماء بارداً، لكن ليس كثيراً، كانت تعلم أن ذلك راجع لدفء الجو، وإلا ما كان بإمكانها أن تحتمله. نزلت إلى الماء بحذر، ثم منحت نفسها فترة لكي تعتاد عليه. وبعد

أن غسلت شعرها، كان الماء قد ابتدأ يصبح دافئاً. اسندت رأسها على حافة الحوض، ثم أغضمت عينيها.

بعد ذلك بساعات، كان هو يقرع باب الحمام وينادي باسمها: «كاسي. هل أنت في الداخل؟»

جلست مجفلة: «نعم... أنا... كم الساعة الآن؟» ثم أخذت تبحث عن المنشفة.

قهقه ضاحكاً وهو يخبرها عن الوقت. كان الوقت عصراً: «أخرجي من الماء قبل أن تذوبي.»

أخذت تنظر إلى نفسها. كانت يداها وقدماها مجعدتين من الماء بينما شعرها جافاً دون أن تمشطه. وقالت له: «سأخرج حالاً. فقد تغلب علي النوم.»

سمعته يقول ضاحكاً: «يبدو أنك معتادة على ذلك.»

أخذت ترتدي ثيابها بسرعة، بنطلون جينز وقميصاً قطنياً، ثم قالت تجيبه: «إن ذلك نتيجة السفر فقط. أظنني كنت متعبة أكثر مما كنت أظن.»

«إذا كنت أنهيت ارتداء ملابسك، يمكنك أن تناوليني منشفة.»

أخرجت واحدة من خزانة الحمام، ثم فتحت الباب. كان قد غيّر ثيابه مرة أخرى، مرتدياً هذه المرة بنطلوناً نظيفاً دون حزام، وقميصاً أبيض. كان شعره مبتلاً وقطرات الماء تتساقط على كتفيه.

ابتسم لها قائلاً: «أخذت دوش. تحت طاحونة الماء، وهذه عادتي. فهي تبرد الجسم بسرعة كما أن ليس ثمة خطر من أن يتغلب النوم عليّ، رغم أنني كنت أوشك أحياناً على النوم أثناء وقوفي تحت الدوش، وهذا ليس كذباً.»

تخللت شعرها بأصابعها قائلة: «لقد جف شعري قبل أن أسرحه. وعليّ أن أعود فأبلله مرة أخرى.»

«إن لك شعراً جميلاً، حتى ولو كان أشعث بهذا الشكل.»

ذهلت: «أتظن ذلك حقاً؟»

فقال: «ألا ترين ذلك؟»

لم تكن من رأيه، فتمتمت تقول: «إنه شعر عادي لا شيء خاصاً فيه.»

تقدم وأمسك خصلة منه: «كلا، ليس كما تقولين. فهو كالحرير نعومة وتألقاً.» نظر في عينيها، وفجأة أخذ قلبها يخفق وجف فمها.

لم يحدث لها هذا منذ عهدها مع زوجها أيمكن أن تكون مشاعرها نحو جوزيف قد تحولت إلى ليون؟

قال: «ربما لم أكن مجنوناً...» وقبل أن تسأله عما يعني، تصاعد رنين الهاتف فجأة فقفزت مجفلة.

قال باسماً: «إنه الهاتف.» اتجه إلى المطبخ فلحقت به. كان الهاتف مثبتاً إلى الجدار فوق المنضدة، فرفع السماعة: «آلو.»

ابتسم لكاسي، ثم عاد يقول: «آلو، نعم يا أمي.»

رفعت كاسي حاجبيها بينما جلس هو على حافة المنضدة متابعاً حديثه: «لقد ذهبت إلى المدينة. آسف إذ فاتني الرد على مخابرتك. نعم، أعلم أننا في وسط الأسبوع. كلا، لم يحدث شيء سيء.»

ثم قال وهو ينظر في عيني كاسي: «لقد تعرفت إلى امرأة.» ابتسم فبدت تجاعيد زاويتي عينيه: «نعم، وأنا أيضاً أظن الوقت قد حان.»

ابتعدت كاسي محاولة أن لا تسمع. لكنها لم تنجح في ذلك وكلامه ما زال يصل إلى مسامعها.

كان يقول: «ربما، وسنرى. كلا، إنك لا تعرفينها.»

فتحت باب الفرن تنظر إلى داخله. كان من البرودة والنظافة بحيث تساءلت عما إذا كان لم يستعمل من قبل.

كان هو يقول: «نعم، إنها في الواقع، جميلة جداً.»

استدارت مجفلة، وتلاقت نظراتهما. شعرت بحمرة الخجل تصبغ وجنتيها، فابتسم لها، بينما تسمرت هي في مكانها عدة لحظات وهي تراه يتمتم بشيء عن عدم اخبار ديل. ثم أدركت أن الحديث قد تحول إلى مواضيع أخرى، فابتعدت بكل هدوء. جميلة جداً... ابتسمت راضية عن نفسها وهي تشعر بسعادة لم تشعر بها منذ وقت طويل جداً.

الفصل الثالث

كان الأمر من السهولة بحيث لم يكونا يتوقعانه أن يكون كذلك، كانت هي فتاة جبلية من مناطق خضراء باردة ومن قمم جبال غرب فيرجينيا، والتي كانت حياتها، وبيتها وقلبها، حافلة دوماً بالأسرة والأصدقاء، أما هو فكان راعي بقر من تكساس قد تعمقت جذوره في مزرعة مواشي تبلغ مساحتها عشرين ألف فدان من الصحراء الجافة، وقد اعتاد تربية الماشية، ورفقة اصدقاء معينين، وكانت هي قد تزوجت في السادسة عشرة وترملت في التاسعة عشرة، لم تكمل دراستها العليا، أما هو فقد حصل على شهادة كلية عليا في إدارة مزارع الماشية وتربية الحيوانات، هي تدندن على الدوام بأغاني شعبها، تحب الموسيقى العصرية كما اعتاد جوزيف ووالدتها ان يفعلا، ولكن ليون كان رجلاً ريفياً يندفع بالغناء كلما شاء مزاجه ذلك، ويبدو ان هذا قد أصبح كثيراً منذ حضور كاسي.

لقد كان ليون هو الذي اعترف بأنه لم يعد ينجز من العمل القدر المعتاد رغم انه كان يخرج من المنزل يومياً عند الفجر، وقد ملأ معدته بأفطار اصرت على إعداده له بنفسها، مزوداً بغداء صنعته هي له، لم يكن الطعام هو نفسه الذي اعتاده، ولكن هذا لم يكن مهماً، كلا ولا حقيقة انها، عملياً، استلمت منزله حيث اخذت تعيد تنظيم الأشياء بما يناسبها وكذلك تنظيم الخزائن. حتى انها وضعت قائمة بمحتويات

المطبخ الغذائية وكذلك الموجودة في البراد في القبو، ولم يكن هو يفترض ان لديها أشياء غير ذلك تقوم بها أثناء غيابه، في الحقيقة لم يكن ليهتم حتى ولو لفت المكان كله بالورق وربطته بشريطة وردية، طالما يجدها هناك كلما عاد من عمله مساء.

كان يعمل يومياً كرجل مجنون وذلك إلى منتصف العصر، فيتجه إلى المنزل حيث يقف تحت دوش الطاحونة الهوائية، وذلك في وسط حرارة النهار، فكانت تستقبله عند الباب حيث تناوله منشفة وثياباً نظيفة، ثم تدخل إلى غرفتها حيث تغلق بابها عليها، بينما يأخذ هو في خلع بنطلونه المبتل ثم يجفف جسمه ويرتدي ثيابه بسرعة.

كان دوماً يبتهج بالقمصان التي تختارها له ليرتديها، كانت بنطلونات الجينز لا تتغير حيث انه لم يكن لديه سواها، لكن بعض القمصان التي كانت تختارها له كانت لديه، منذ مدة طويلة حتى نسيها، وقد اختارت له مرة قميصاً كان قد جاءه هدية منذ سنوات ولكنه لم يلبسه يوماً، لم يعجبه القميص المخطط باللونين الأخضر والبرتقالي، ولحسن الحظ كان القميص صغير القياس بالنسبة إليه، فسرّه ان يعلم أن جسمه قد امتلأ عضلاً وذلك منذ ايام الكلية، وقد اقترح شبه مازح، بأن يلقيا بالقميص بعيداً، لكنها زجرته غاضبة لمثل هذا الإسراف، وقالت انها ستحتفظ به لشخص آخر، ثم ابتعدت عنه وهي تضم قميصه إلى صدرها.

لقد كانا تناقشا في أمر علاقتهما حالياً، دون شك، لكنهما كانا يريدان أن يتأكدا من التآلف بينهما أولاً، وإذا لم يكن كذلك، فلن يحصل أي ضرر... ولذلك...

كلمة (لذلك) كانت تقتله، وأيضاً كلمة (التعقل). لكنه كان سعيداً جداً لوجودها في منزله، لم يقابل امرأة من قبل بمثل حلاوتها ولطفها. كان كل هذا يكاد يدمره حقاً، فكاد يجد صعوبة بالغة في الابتعاد عنها، فكان يسير خلفها في أنحاء البيت، في المطبخ وهي تقف امام الحوض تغسل الأطباق أو تعد طعام العشاء، أو القهوة، وبجانبها على الأريكة، وعندما يفترقان عند نهاية السهرة كل إلى غرفته، كان يستلقي على فراشه ساعات، يتمنى لو انها تأتي اليه، أو محدثاً نفسه بأن يذهب إليها، حتى انه اخذ يقوم بتصرفات تقرب بينهما، فكان يخرج قيثارته ويعزف لها، ثم عرض عليها بأن يعلمها العزف، وعندما يشعل مولد الكهرباء في الأمسيات، كان يضع اشرطة الموسيقى في المسجل ويجلس الاثنان يستمعان إلى موسيقى واغاني رعيان البقر المرحة. أو يجلسان على شرفة الباب الأمامية يستمتعان بجمال الليل.

كان شغوفاً على الدوام بتلك الليالي الصحراوية، والتي كانت تملأه بالمشاعر، حيث السماء سوداء مرصعة بملايين النجوم، بينما الرمال الباهتة اللون تمتد نحو الجبال البعيدة. وذات مرة كانا يجلسان معاً ينظران إلى النجوم، حدثها كيف ان الليل عندما يكون البدر مكتملاً، يصبح أشبه بالنهار، وكيف ان تساقط الثلج، في فصل الشتاء يكون له نفس الفعل، لكن سرعان ما يتلاشى كل هذا في الصباح، وكأن كل ذلك لم يكن سوى تصورات ذهنية، حدثها أيضاً عن النوم بجانب نار المخيم والشعور بالوحدة في هذا العالم وفي نفس الوقت

الشعور بالأمان الذي تبثه تلك النار في النفس، كان يتحدث ويتحدث اكثر مما تحدث إلى أي انسان في حياته، حدثها عن مواسم جمع الماشية حين يستأجر تسعة أو عشرة رجال لذلك، ثم يتعاقد مع طاه وعربة حيث يهتم الطاهي باعداد طعامهم أثناء سوقهم لماشيته عبر مزرعته، أو ربطها وجرها عبر الوديان التي تجري فيها الأنهر، وشقوق الجبال وذلك لكي يمكن تفريقها ومن ثم وشمها ووضع بطاقات عليها بالاسم والعنوان ثم تحضيرها للتسويق. كانت هي تستمع اليه وكأن كل كلمة كان ينطق بها هي أهم ما سمعته في حياتها.

كانت هي تتكلم أيضاً، في بعض الأحيان. حدثته عن الجبال في موطنها، ومخاطر استخراج المعادن من المناجم، النقص في الأعمال ومشقة الحياة هناك. حدثته عن اخوتها بقلق وشغف، وعن والدها بمرارة، وبكآبة عن والدتها وبصدق عن زوجها الراحل، وصفت له دودي وحكت له قصصاً مرحة عن تلك المرأة الشجاعة الفائقة الحيوية والتي اصبحت لها والدة ثانية، كانوا قوماً فقراء، كما قالت، عاشوا دوماً يعملون لقوت يومهم. لم يكن الأمر شيئاً في الواقع، كما قالت حيث ان كل شخص كان يشارك الآخر مشقات الحياة تلك، ولكن تشينتز والدها لم يكن من النوع الذي يحرم نفسه من شيء مهما كلف ذلك أسرته. قال لها ليون بعطف انها أحسنت إذن بترك ذلك المنزل، واغرورقت عيناها بالدموع، قائلة انها مسرورة لمجيئها، فالمكان هنا رائع الجمال، فهي تشعر معه بالحرية والأمل حسب قولها.

عندما استلقى على سريره تلك الليلة ابتدأ يحلم بالحياة التي سينشآنها معاً، ثم بعد اسبوع أو نحوه من وصولها، وجد ثوراً صغيراً منقلباً على جانبه في أخدود عميق ضيق حيث حشر في مسافة تبعد عن سطح الأرض مسافة تتراوح بين خمسة أمتار إلى سبعة، كانت قوائمه مطوية أسفله تحت بطنه فلا يستطيع تحريكها، وقد حاول ليون القيام بكل طريقة يعرفها لإخراج ذلك الثور من ذلك الأخدود، لكنه لم يستطع زحزحته برمي الحبل حول قرينه أو رأسه. أخيراً، وبعد ان تملكه اليأس بقدر ما تلطخ جسمه بالأوحال، أدرك انه ما لم يحصل على عون من أحد، لن يكون امامه سوى اطلاق رصاصة الرحمة عليه، وان هذا الخيار الأخير هو الوحيد لديه لو انه كان وحده، لكن كاسي هنا الآن وقد اصبح بإمكانها ان تركب الخيل وهو يعلم انها ستساعده لو طلب منها ذلك.

أسرع عائداً إلى البيت على حصانه المتعب، وعندما دخل المنزل لاهثاً وحذاؤه ينثر الرمال فوق الأرض والبساط الذي كانت نظفته بيديها، وجدها جالسة على الأريكة تتصفح إحدى مجلاته، وساقاها مثنيتان أسفلها فقال لها: «لديّ ثور صغير قد سقط في اخدود عميق على مبعدة أربعين دقيقة من هنا، اما ان تساعديني في إخراجه أو عليّ ان اقتله.»

وضعت المجلة من يدها وتوجهت إلى غرفتها وهي تقول بهدوء: «اطفىء الفرن في المطبخ بينما أغير انا ملابسي.»

كان الوقت ثميناً، لكنه وقف ينظر اليها إلى أن دخلت

خلف الستار. وجد في الفرن قالب حلوى خاف ان يتلف إذا هو أطفأ الفرن، ولكنه سيحترق إذا بقي هذا مشتعلاً، وهكذا اطفأه آسفاً لكنه ترك الحلوى في الفرن راجياً ان يكون في الحرارة المحصورة في الداخل ما يكفي لانضاجه. عندما عاد إلى غرفة الجلوس كانت كاسي هناك.

قال لها: «الأفضل ان ترتدي قميصاً طويل الكمين، فالشمس ستحرقك.»

فعبست قائلة: «الشيء الوحيد الطويل الكمين عندي هو الكنزة.»

فقال: «سأحضر اليك احد قمصاني.» وسار إلى غرفته حيث تناول قميصاً من خزانته وهو ينادي قائلاً: «لا اظن لديك قبعة.»

«كلا.»

رفع عن مشجب في الجدار قبعة قديمة من اللباد وعاد بها إلى غرفة الجلوس: «جربي هذه.»

تناولتها منه وهي جالسة على الأريكة تلبس حذاءها الخفيف، فهز رأسه قائلاً: «نسيت ان ليس لديك حذاء مناسب.»

فقالت: «هذا غير مهم، في الواقع أليس كذلك؟»

نظر اليها بشيء من الاشمئزاز وقال: «الآن، ألم أقل لك ان ركاب السرج سيحدث في كاحلك العاري تآليل؟»

أومأت برأسها شاعرة بالذنب فقال: «سأحضر اليك زوج جوارب سميكة.» وإذ ابتسمت له، طرف بجفنيه، ثم عاد إلى غرفته وهو يقول: «غيري ذلك القميص.» ثم مد يده إلى قعر الدرج وأخرج زوجاً من الجوارب الصوفية السميكة

يرتديها عادة في أبرد أيام الشتاء. قال لها وهو يزيح ستار باب غرفته: «هذه ستنفعك.»

انهارت كاسي على الأريكة وهي تلهث، انه رجل طيب عزيز عليها، واكثر الرجال الذين عرفتهم بعد زوجها جاذبية، وفي الحقيقة لم يجذبها جوزيف في بداية تعارفهما كما جذبها ليون. كانت حاجتها إلى الحب هي التي جذبتها إلى جوزيف، زوجها الراحل. هذا إلى فكرة تركها لمنزل والدها، وان يكون لها ولجوزيف منزل خاص بهما، كان جوزيف رجلاً جديراً بالثقة، وجدها تستحق اهتمامه وعنايته، وقد تعلمت ان تحب فيه الرجل اكثر مما احبت الحرية والشراكة التي قدمها لها، كانت تجد سعادة في الجلوس معه، لكنها ما وصلت إلى مثل هذا الشعور بالشوق الذي تشعر به الآن نحو ليون.

لم تكن تتوقع هذا، كان كل آمالها تنحصر في ان يعجبها وأن ينسجما معاً، كانت تتوقع الرضى على الأكثر، أو التسامح على الأقل، ولم يكن لديها فكرة عما تتوقع منه بالمقابل. لقد أدهشها منذ البداية بعمق تفكيره وإلفته ووسامته.

لقد شعرت بذلك منذ اللحظة التي وقع فيها بصرها عليه، حتى انها فكرت تبصراً منها بالعواقب، بأن تجعل اتصالاتهما محدودة إلى ان يتهيأ لهما معرفة ما إذا كانا متناسبين كزوجين.

اخذت تزرّر القميص وهي تفكر في أنه يريدها الآن هادئة متزنة، فهذه فرصتها التي ستثبت له فيها مبلغ العون الذي ستتمكن من تقديمه إليه، وكيف ستجعل حياته

افضل، فهذا ليس الوقت الذي يصلح لمشاعر الحب وتصوراته. ارتدت الجوربين ثم حشرت قدميها في حذائها. وعندما حاولت حشر ذيل قميص ليون الذي ارتدته، في بنطلونها كان اكبر من ان تتمكن من ذلك، فاكتفت بأن ربطته من الأمام، ثم اخذت القبعة ووضعتها على رأسها. عندما نظرت إلى صورتها في المرآة لوت شفتيها، لم تكن تبدو جذّابة بشكلها هذا، في الواقع ولكن من يدري؟ كل الاحتمالات واردة.

مهما كانت ردات الفعل التي توقعتها من ليون، لم يكن منها ما وجدته فعلاً، فقط نظر إليها وهي تدخل مخزن الغلال ثم لم يلبث ان انفجر ضاحكاً، وخافت في البداية ثم ما لبثت ان أخذت تضحك هي أيضاً. ترك هو الحصان وتقدم منها يمسك بحافة القبعة يعيدها إلى الخلف وهو يبتسم لها.

قال: «حسناً، هكذا افضل، يجب ان نجلب لك من المدينة ملابس مناسبة عندما نذهب إليها.»

قالت دون تفكير: «يبدو من كلامك انك مصمم على إبقائي هنا فترة.»

تلاشت ابتسامته وهو يقول: «وهل انت مصممة على الذهاب قريباً إلى مكان ما؟»

نظرت في عينيه اللامعتين، وهزت رأسها نفياً فعادت إليه ابتسامته متألقة. وقال: «هذا جميل، حسناً، ان الثور في انتظارنا.»

حولت نظراتها عنه واندفعت تسير أمامه قائلة فجأة: «إذا شئت الصراحة، اظن ان من الأمور المهمة، بالنسبة إلى رجل

وامرأة في وضعنا هذا، ان ينجذبا إلى بعضهما البعض، وإلا...»

«وإلا، فلا فائدة من الإستمرار، هذا إلى أنني أريد أسرة ولهذا...»

هتفت بسعادة وقد تملكتها الدهشة: «تريد أسرة؟»

بدا عليه الذهول لحظة ثم قال: «أريد ماذا؟»

«اعني تريد أسرة... اطفالاً.»

ضاقت عيناه وكأنه يريد ان يقول انها فقدت ذلك التعقل القليل الذي لديها: «لقد قلت هذا لتوي أليس كذلك؟»

«نعم.»

«من الطبيعي ان اريد ذلك، اتظنين انني سأترك خلفي هذا المكان لأبناء رجل آخر؟ طبعاً، إذا انا اضطررت إلى ذلك، هناك أولاد ديل، ولكنه سيترك لهم مزرعة فارغون، وهكذا ليس ثمة ما يمنع من ان احتفظ بما لدي، ألا تظنين ذلك؟»

«نعم، بالطبع.»

قال: «هذا حسن، أعني... انت تحبين الأطفال، أليس كذلك؟»

«طبعاً.»

ابتسم: «حسناً، هذا شيء نحن متفقان عليه، أم هل أقول، شيئان؟»

لم تكد كاسي تستطيع التنفس. يا لروعة ذلك... ويا لروعته هو. أخذت تفكر في بيتي وبارت وفريدي والتوأمين، وعملياً لم يعد نيوت طفلاً، فهو سيكون مفيداً جداً في هذا المكان، وسيدرك ليون ذلك عندما تخبره عنه،

شعرت فجأة وكأن قلبها يكاد ينفجر من شدة الفرح، ومنحته ابتسامة عريضة تنضح سعادة، فنظر اليها مستغرباً ثم قال: «إذا كانت هذه الفكرة قد اعجبتك إلى هذا الحد، ربما علينا أن نتزوج حالاً.»

قالت ضاحكة: «نتزوج؟»

«نعم، لكي نبدأ بإنجاب الأطفال.»

الأطفال! انه طبعاً يريد اطفالاً... اطفاله هو... ولكن هذا لا يعني انه سيرفض غلمانها.

هتفت فجأة: «الثور.»

جمد في مكانه لحظة لم يلبث بعدها ان قال فجأة: «امتطي ذلك الحصان.»

أومأت وهي تكتم ابتسامة، ثم أسرعت ممتثلة لأمره إلى حيث امتطت صهوة الحصان الذي كان أسرجه لها، وألقى ليون اليها زوجاً من القفازات وهو يقول: «علينا ان نسرع، يا عزيزتي فانتبهي إلى نفسك. لكنك اكثر أهمية من الثور، فإذا صادفتك أية مشكلة ناديني، هل سمعت؟»

كان سائراً امامها وهو يكلمها، فأومأت بثقة وهي تعدل من جلستها. انطلق هو بحصانه فانطلقت خلفه، وعندما تجاوزا مخزن الغلال، نظر ليون من فوق كتفه ليطمئن عليها، ثم بدا عليه الرضى، وزاد من سرعة حصانه، فتجنبت الحفر والصخور والعقبات غير المرئية في الطريق ما قد يسبب للحصان التعثر، ولهذا حرصت على ان تجعل حصانها يسير على خطى حصان ليون مباشرة.

بعد عدة دقائق أبطأ في السير، ثم بعد ذلك بقليل عادا فأسرعا مرة أخرى، وفسر لها ليون ذلك بأن هذه الطريقة

تجنب الجياد الإرهاق ونقص الأوكسجين الذي يستنفده اللهاث، والذي قد يسبب سقوط الجواد في الطريق وهذا شيء خطر للحصان وراكبه، أومأت كاسي متفهمة وهي تركز على الاحتفاظ بتوازنها، وعندما اخذا في الصعود، كان الإرهاق من الركوب ومحاولة تذكر كل تعليمات ليون لها، كل ذلك كان قد تملك منها.

سمعا خوار الثور قبل ان يصلا إلى الهضبة الصخرية المنشقة عن الأخدود، أوقف ليون الحصان ثم ترجل عنه. وبعد أن قيده إلى شجيرة قصيرة بين صخرتين، قال مشيراً إلى حيث الثور: «يبدو من صوته القوة.» وأخرج من جيبي السرج مزلاجاً وكتلاً خشبية وحاملات معدنية، وهو يتابع قائلاً: «أرجو ان لا يكون قد ألحق الأذى بنفسه، لكنني لا اظن ذلك، فهو محشور تماماً في الشق.»

انزلقت كاسي عن صهوة حصانها وقالت: «هل يمكنني القيام بشيء؟»

فقال وهو يحدث ثقوباً في الأرض يثبت فيها قضباناً حديدية: «أريحي نفسك قليلاً، فسأكون بحاجة اليك في الأخدود أسفل.»

فتحت فمها ذاهلة: «أنا؟»

أومأ إيجاباً، فقالت: «ولماذا أنا؟»

أجاب وهو يضع الترباس في مكانه ويدير الحاملات: «لأن ليس بإمكانك ان تسحبيني إلى أعلى.»

«آه، هذا معقول.» سارت نحو حافة الأخدود تلقي نظرة، شهقت بعدها ثم تراجعت متعثرة إلى الخلف وهي تقول: «انها تبدو خمسين قدماً عمقاً.»

فقال: «كلا، انها ليست اكثر من خمسة عشر، وربما عشرين.»

تساءلت عما إذا كان هذا صحيحاً. يبدو أنه عرف ما يجول بخاطرها، فقال يطمئنها: «ستكونين على ما يرام، فأنا سأنزلك ثم انتشلك دون أي مشاكل، المهمة الشاقة هي لف ذلك الحبل حول الثور.»

شهقت ذاهلة: «اتريدين ان ألف حبلاً حول ثور محشور في أخدود على مسافة عشرين قدماً تحت الأرض؟»

نظر اليها بعينين شبه مغمضتين: «نعم، وهذا هو كل شيء تقريباً.»

«لا يمكنني القيام بهذا العمل، يا ليون، انه مستحيل.»

قال وهو يتقدم نحو حصانها ليخرج البكرة الجرارة التي كان وضعها في جيب السرج: «والآن لا تكوني سلبية بالنسبة لكل شيء، قومي بما أطلبه منك وليكن لديك شيء من الثقة.» أخرج كذلك لفة من الحبال وضعها على كتفه.

نظرت إليه وهو يسير إلى بقعة تبعد عنها حوالي المترين حيث كانت هناك صخرتان متقابلتان احداهما أعلى من الأخرى بقليل، فدق الوتد ذا الثلاث قوائم الذي كان صنعه، في الشق الذي يفصل بين الصخرتين وثبت فيه البكرة الجرارة، ثم ابتدأ يدخل الحبل خلال الجهاز وذلك بحركات واثقة، شعرت هي لذلك بشيء من الارتياح وقالت تسأله: «اظنك سبق وقمت بهذا العمل من قبل، أليس كذلك؟»

«ليس بالضبط.»

نظر إليها، ثم قال بهدوء: «اسمعي، إذا كنت لا تريدين ان تقومي بهذا العمل، فقط قولي هذا. لأنك إذا لم تريدي، فكلما

أسرعت بوضع نهاية لعذاب هذا الحيوان المسكين، برصاصة، كان هذا افضل.»

شهقت قائلة: «ماذا تعني بذلك؟»

وقف واضعاً يديه على وركيه: «لا يوجد خيار آخر. انك لا تريدينني ان اتركه في الأخدود ليموت جوعاً، أليس كذلك؟»

«آه، كلا بالطبع.»

«إذن؟»

أغمضت عينيها لحظة: «حسناً.» حقاً لم يكن هناك بديل مقبول، على كل حال، كانت واثقة من ان ليون لن يسمح بأن يحدث لها شيء. لذا قالت: «ماذا عليّ ان افعل، أولاً؟»

ابتسم وأومأ راضياً: «البسي قفازيك ثم تعالي.» قامت بما طلبه منها بالضبط، رفعت ذراعيها ليتمكن من ربطها بالحبل، مركزة انتباهها جيداً وهو يريها كيف تحمل لفة الحبال الثانية فوق كتفها وكيف توسع عقدة الحبل التي كان صنعها في نهايته، مستمعة إلى تعليماته عن كيفية تثبيت ساقيها على جانبي الأخدود عندما تصل إلى الثور، ثم تضع الحبل فوق قائمتيه الخلفيتين، على ان تحاذر الإقتراب من قرنيه النطاّحين.

قال: «انه لن يتمكن من ان ينطحك، لأنه لا يوجد مسافة كافية، ولكنه قد يسمّر ذراعك أو يدك أو قدمك على الصخرة. فإذا حدث ذلك، فتمسكي بالهدوء واعملي بحرية. فالأسوأ يقود إلى الأسوأ، وأنا عند ذلك، سأطلق النار على رأسه، ثم آخذ الطرف الثاني من الحبل ثم انزل اليك لأخرجك اتفقنا؟»

اومأت، لكنها كانت تفكر في انها ستعتبر نفسها امرأة

فاشلة إذا هي نزلت مغامرة بنفسها ومتحملة كل ذلك العناء، لكي تدعه يطلق النار في النهاية على ذلك المخلوق. دفعها برفق مشجعاً، إلى حيث البكرة الجرارة، متخذاً وضعاً مناسباً خلفها، قابضاً على الحبل بيديه وقد ادخل فيهما القفازين، ثم ثبت ساقيه وهو يقول: «عندما تصلين إلى الثور إصرخي لي، عند ذلك اتمهل ثم أربط الحبل، وعندما يصبح الحبل الآخر حول الثور، فقط إبقي ممسكة بالطرف. عند ذلك سأصعدك أولاً، ثم نستعمل الجوادين لكي يصعدا الثور، هل فهمت؟»

أومأت مرة أخرى.

قال: «فلنبدأ، إذن.»

سارت كارهة إلى حافة الأخدود وجلست عليها، ثم اخذت تنزلق كما علمها، كانت فتحة الأخدود اكثر اتساعاً من ان تسمح لها بالتمسك وتثبيت قدميها، لكن الحبل كان يمسك بها جيداً، ومالبث الأخدود ان ضاق إلى حد تمكنت معه من ان تثبت قدماً على كل جانب ثم تهبط تدريجياً، عندما رآها الثور متجهة نحوه، اخذ يخور غاضباً، حاولت ان تتحدث إليه بصوت هادىء رقيق، لكنه اخذ يكافح ويتخبط محاولاً إبعادها عنه وهو يصرخ فزعاً، وفوقه تماماً، ثبتت قدميها بقوة، ثم صاحت تنادي ليون، فتوقف عن انزالها، وبعد لحظات كان يطل عليها من فوق حافة الأخدود، كان يقول شيئاً ما لكنها لم تستطع سماعه بسبب خوار الثور. فكوّر يديه وصاح يقول: «أرفسيه.»

«ماذا؟»

«أرفسي ذلك اللعين في مؤخرته.»

ثبتت يديها على جانبي الأخدود، ثم رفعت قدمها ورفست الثور، فكوّر ليون يديه مرة أخرى وصاح يقول أخرى: «أرفسيه مرة أخرى، يا كاسي، فلن يصيبه ضرر.»

عندما فعلت سكت الحيوان، فرفعت بصرها إلى ليون باحترام جديد.

قال: «تمهلي الآن، يا عزيزتي، فأنا لا أريد عظاماً مهشمة في جسدك هذا.»

ألقت عليه نظرة جافة ثم ابتدأت العمل، وبعد نصف ساعة من الجهد البالغ، كانت قد اصبحت على وشك ان تطلق النار على ذلك الثور بنفسها، ولكنها في النهاية، استطاعت الإمساك بقائمتيه الخلفيتين، صاعدة إلى الساقين، ثم ثبتت الأنشوطة حول خصره، ثم صاحت تقول لليون.

«هذا أحسن ما بإمكاني القيام به، يا ليون، عليك ان تحاول جذب الحبل إلى أعلى جسمه من عندك هناك.»

فقال وهو يغيب عن بصرها: «انتظري يا عزيزتي، وسأرفعك إلى هنا.»

كانت ذراعاها وساقاها ترتجف، بحيث لم تستطع ان تساعده كثيراً في صعودها إذ لم تستطع تثبيت قدميها على جانبي الأخدود، لكن لم يبد عليه أنه منزعج كثيراً، وسرعان ما أصبحت على الأرض حتى قبل ان يستعد هو تماماً لذلك، فربط الحبل وجاء لمعاونتها وهو يحمل في يده وعاء فيه ماء، جذبها إلى أعلى، جاراً إياها من الحافة، ثم أوقفها على قدميها، عندما تعثرت موشكة على السقوط لف ذراعيه حولها يثبتها، ثم رفع لفة الحبال من على كتفها وألقى بها على الأرض.

قالت له تومىء برأسها: «لا أدري إذا كنت نجحت في ذلك، يا ليون.» لكن اهتمامه كان مركزاً عليها كما يبدو: «اجلسي الآن، يا صغيرتي، ودعينا انا والجوادين، نقوم بالبقية، لقد بذلت جهدك، وليس بإمكان أي احد آخر ان يفعل اكثر من ذلك، فأريحي ذهنك.»

أومأت وتركته يجلسها على الأرض، اخذت تشرب الماء بينما كان هو يفك قيد الجوادين وينهضهما، وقالت له: «لا أريدك ان تطلق النار عليه يا ليون، ولكنني لا أدري ان كان عملنا سينجح.»

سار إليها، ثم انحنى يقول لها: «مادمت قد تعاطفت مع ذلك الحيوان، فإذا كان علينا ان نطلق النار عليه فلن نأكله، هل ارتحت الآن؟»

هتفت: «آه، يا للغرور، يا ليون.»

ضحك وقال: «سأعلمك الشتم بالأسبانية.» ثم تركها وابتعد.

استلقت على الأرض شاعرة بالسرور لخلاصها من ذلك الوضع المتوتر الشاق في الأخدود، وبدا وكأن الزمن لا نهاية له قبل ان ينهي ليون ترتيباته ويتقدم بالجوادين، ثم جاءت لحظة شد الحبل، ليتلو ذلك خوار الثور مرة أخرى، وزحفت كاسي إلى حافة الأخدود، ثم قالت بعد ان القت نظرة:

«انك تؤذيه.»

صاح يقول: «يا عزيزتي، انني ربما قتلته، أي نهاية تبدو لك محتملة؟»

«لا للاثنتين.»

قال شيئاً بالأسبانية، ثم اخذ يصدر صوتاً لجواديه، وارتفع الحبل ومن ثم الثور.

حبست كاسي انفاسها بينما الثور يخور ويخور، ثم اخذ يرفس وقد انزلقت قوائمه إلى الأسفل. فجأة رأته متسلقاً نحوها، فصرخت: «انه قادم، انه قادم.»

كان ليون يركض هابطاً التل امام الجوادين، وهو يصيح بها: «ابتعدي عن ذلك المكان، حركيه، حركيه.»

نظرت إلى داخل الأخدود، فرأت الثور امامها ونظراته المجنونة مسمرة على وجهها وقرناه يتحركان بعنف، فألقت بذراعيها على رأسها وقذفت بنفسها إلى الخلف وذلك في الوقت الذي وصل هو فيه إلى الحافة وهو يخور ويلقي برأسه هنا وهناك، اصابها في ساقها، ثم توارى بين مجموعة الصخور، وعندما رفعت بصرها بعد ذلك، كان ليون على المرتفع حاملاً الحبل بيديه. وكان الثور والجوادان يركضون في اتجاهين مختلفين، ثم إذا بشيء يحدث، فقد نفض ليون الحبل، فانحلت الأنشوطة الملتفة حول جسم الثور فانطلق هذا حراً يهبط المنحدر وهو يخور ويحرك ذيله، بينما جلس ليون على سرج حصانه يعيد لف حبله، شهقت كاسي، ثم انطلقت بالضحك، وعندما انتهى، استدار بالحصان متجهاً نحوها.

قفزت واقفة وهي تهتف ملوحة بقبعتها فوق رأسها: «لقد نجحنا.»

نزل عن حصانه، ثم تقدم نحوها واللجام بيده، وهو يقول وعيناه تلتمعان: «لم اشك في ذلك ابداً، بإمكاننا ان نكون شريكين ناجحين، ألا تظنين ذلك؟»

فقالت: «نعم، هذا صحيح.»

فقال ضاحكاً وهو يناولها اللجام: «أمسكي هذا.» ثم اخذ يعيد كل أدواته إلى اماكنها في السرج. وكان قد استعاد اللجام منها وامتطى صهوة جواده وذلك قبل ان تدرك انها من دون جواد. فصرخت: «ماذا سنفعل؟»

انحنى ورفعها على سرج حصانه أمامه، فقالت له: «ولكن ماذا حدث لحصاني؟»

قال دون اهتمام: «ربما سيسبقنا إلى مخزن الغلال.»

ضحكت قائلة: «كيف لم افكر في ذلك؟»

«ذلك لأن سعادتك منعتك من التفكير، ولكنني غير سعيد.»

«انت غير سعيد؟ وما السبب؟»

فقال: «لأن كل ما كنت تريدينه هو اخراج ذلك الثور من الأخدود، اما انا فكنت أريد شيئاً آخر.»

شعرت بالحذر من لهجته، ولكنها لم تستطع ان تصدق تماماً، فالتفتت اليه، وسألته: «ما الذي تريده يا ليون؟»

بقي لحظة طويلة صامتاً، ثم قال: «ان علينا ان ننتظر ثلاثة ايام بعد تقديم رخصة الزواج، فإذا حصلنا عليها غداً، بإمكاننا الاحتفال بالزفاف... في عطلة نهاية الأسبوع، اننا بحاجة إلى بعض التسوّق أيضاً، بالطبع، أليس كذلك؟»

لم تنطق بكلمة، خائفة من ان لا تكون قد سمعت جيداً، بينما تابع هو يقول: «إذا كنت تريدين رجل دين فهناك واحد يمكننا استدعاؤه.» بقيت لحظة صامتة، ثم التفتت إليه، ولكنه تجاهلها وهو يتابع قائلاً: «يمكنني ان استدعي دولوريس وكاتر ليكونا معنا، وإذا كنت لم تفهمي تماماً ما أقول، فأنا اطلب يدك للزواج.»

كان صحيحاً ما سمعت، فرفعت يديها إلى وجهها وقد انهمرت دموعها، ثم همست: «آه يا ليون.»

نظر اليها وقد تألقت عيناه، وقال برقة: «لقد قلتها بنفسك وهي اننا نصلح شريكين، واظنني سأكون رجلاً محظوظاً جداً إذا أنت قلت نعم، أليس كذلك؟»

اومأت برأسها إيجاباً دون ان تستطيع الكلام، وقد انهمرت دموعها فوق خديها.

الفصل الرابع

استيقظت كاسي وأشعة الشمس تتدفق من النافذة، فكان أول ما تبادر إلى ذهنها هو أنها ستتزوج، وبعد هذا عادت إلى النوم من جديد، كان ليون يتناول افطاره عادة قبل الفجر.

استدارت تنظر إلى أشعة الشمس على أرض غرفتها، فشعرت بوخزة ألم. لم يدهشها هذا وهي تفكر في المجهود الشاق الذي بذلته أمس. كان أسوأ كثيراً مما كانت تخشى، وعندما جلست على حافة السرير تؤرجح ساقيها، شعرت بعذاب لا يوصف، فقد كان الألم يسري في ساقيها وظهرها. كما أن ذراعيها كانتا مشنجتين، وعندما حاولته النهوض، أخذت تصرخ.

دخل ليون إلى غرفتها وفي يده فنجان قهوة.

قال لها وهو يرفع فنجانه إلى شفتيه: «أظنك تشعرين بالألم هذا الصباح.»

أومأت وهي تقول بارتباك: «آسفة لتأخري في النوم.»

«لا بأس، أم تراك نسيت أننا سنذهب إلى المدينة اليوم؟»

المدينة... رخصة الزواج... وتلاشى شعورها بالارتباك ليحل محله خجل غير متوقع، فاومأت برأسها غير واعية إلى الرقة التي بدت في نظراتها وهي تقول: «لم أنس.»

www.rewayatromancia.com

ابتسم قائلاً: «هذا حسن. أتريدين فطوراً؟»

هتفت تقول: «آه، لا بد أنك جائع.»

أجاب: «كلا، فقد تناولت طعامي. أما طعامك فهو في الفرن.»

قالت وهي تسير نحو الباب: «إنني شديدة الأسف.»

تبعها إلى غرفة الجلوس وهو يقول: «لماذا؟ إنني أحسن الطهي، كما تعلمين. هذا إلى أنه ليس بإمكانك ذلك هذا الصباح.»

قالت تئن وهي تستند إلى كرسي: «أعلم ذلك. ماذا سأفعل؟»

قال وهو يضع فنجانه من يده: «حسناً، أولاً، يجب أن ندلّك ذراعيك.»

نظرت إليه طويلاً وقد تملكها شعور بالغ بالدفء، وبأنها محبوبة. لم تكن تتوقع أن تجد من يحبها مرة أخرى. فاغرورقت عيناها بالدموع. هل هذا ممكن؟ هل بإمكانها أن تحصل على الحب مرة أخرى؟ لكنها لم تخبره بعد بالحقيقة. إنه لم يعلم أن ليس بإمكانها أن تأتيه بمفردها. إنه لم يعلم أنها تريد منه أكثر مما يريده منها. فكيف يمكنها أن تخبره الآن؟ إنه سيتألم وسيصدم، ويشعر أنها غدرت به. ما الذي فعلت؟

نهض قائلاً إنه سيعدّ لها فطورها... ما الذي ستفعله؟ عليها أن تخبره، ولكن كيف؟ كيف تستطيع أن تحتمل ايذاءه؟ الأفضل أن ترحل. أن تغير رأيها. أن تتركه الآن قبل أن يدرك ماذا فعلت. لكن كيف كان لها أن تعلم أنه سيقع في غرامها؟ ولماذا يغرم بها رجل مثل ليون؟

أو جوزيف، رجل مثل جوزيف.

تملكها الذهول ما الذي فيها يجعل رجلين يقعان في غرامها؟ ثم إنها كاذبة مخادعة، مستغلة. فكرت في والدها فشعرت بالمرض، لا يمكنها احتمال هذا. عليها أن ترحل اليوم. إنه سيأخذها إلى المدينة، وهناك ستخبره أنها غيرت رأيها، ثم تطلب منه أجرة الباص. لكن إلى أين؟ ليس بإمكانها أن تذهب إلى إخوتها، لأنهم يقيمون مع والدهم، جميعهم ما عدا بيتي. هل يمكنها الاقامة مع دودي هي وابنها؟ فدودي بحاجة إلى عونها. ستكون أجرتها الاقامة وغرفة لها ولابنها. لكن هذا يعني أن إخوتها سيبقون مع والدهم تشينتز ومارلين، أو الأكثر احتمالاً أن يدخلوا الملاجىء الخيرية. حدثت نفسها بعنف أن هذا لا يمكن تجنبه. ابتسامة فريدي المغرورة، ونظارات بارتون السميكة طافتا أمام عينيها. كيف تستطيع أن تتركهما لشينتز؟ كيف يمكنهما أن يحتملا الوحشية التي سيواجهانها؟ وماذا عن التوأمين؟ إنهما وغدان منذ الآن، فكم من الوقت يلزمهما ليكونا كوالدهما؟ ونيوت؟ إنه يستحق كل شيء حسن.. فهولامع الذكاء وعنيد ومحبط. وهو سيرفع قبضته على شينتز مرة بعد مرة... إلى أن يقتله تشينتز.

إنها لا تستطيع أن تعود. لا تريد أن تعود. وكل ما بإمكانها هو أن تحب ليون باراديس بكل قلبها ووجدانها. لقد قررت الآن ما ستفعل. ليس بإمكانها العودة، ولهذا ستخبره بكل رقة ولطف، وبطء. ستجعله يعلم بأنها أحبته وتحبه، وستحبه على الدوام.

عندما عاد من المطبخ، استدارت تنظر في عينيه الرقيقتين، ثم تقول: «أريد أن أخبرك بشيء.»

ابتسم لها بثقة، وقوة: «هذا حسن، ما هو؟ أخبريني.»

ازدردت غصة في حلقها، وأخذ قلبها يخفق بعنف حتى ظنت نفسها على وشك الانهيار. ابنها بيتي على الأقل. إن عليها أن تخبره عن بيتي. ولكن ماذا لو غضب؟ لو شعر بخيبة أمله فيها؟ ماذا لو كان لا يقبل في بيته ابن رجل آخر؟ وما هو الأمل الذي سيبقى عند ذاك، لأي منهما؟ رأى الخوف في وجهها فكسى وجهه الجد. وقال بلطف: «إنك ترتجفين، يا حبيبتي؟»

اندفعت تقول: «إن لدي إبناً، وهو في الرابعة من عمره. كان يجب أن أخبرك منذ البداية. ولا أدري لماذا لم أفعل. لم أجرؤ، على أن آمل بأن تنتهي معرفتنا بالزواج.»

بدا عدم التصديق على وجهه: «لديك ابن؟»

لم تستطع أن تخمن بما يفكر أو يشعر من وراء دهشته هذه. فاتكأت على الجدار وهي تشبك ذراعيها على صدرها. لم تعرف ماذا تقول غير هذا أو ماذا عليها أن تقوله. لكنه قال: «إن لديك إبناً، فهل ظننت أن ذلك يشكل بيننا أي فرق؟ هل ظننت إنني إذا كنت علمت ذلك فسأرفضك؟»

فتحت فمها لتقول شيئاً، ثم أطبقته، وأومأت برأسها.

فقال لها بصدق: «ربما كان سيحدث هذا في البداية، ولكن ليس الآن.»

بدا عليها الارتياح. إذن فقد كان الأمر سيكون مختلفاً لو أنها حدثته بالأمر منذ البداية.

سألها: «أين هو؟»

«مع دودي. لم أستطع تركه مع والدي. فمارلين تضربه. لكنه ولد طيب وخجول.»

«ما اسمه؟»

«اسمه بيتر جوزيا وأدلله باسم بيتي.»

«أتظنينه سيحبني؟ وهل سيكون سعيداً هنا؟»

سألها ذلك برقة فائقة.

نظرت في وجهه وهمست: «آه، يا ليون.»

لم تستطع أن تكبح المشاعر التي تملكتها. عرفان الجميل، الارتياح والحب. ذلك لأنها لم يكن لديها شك في أنها الآن تحبه.

إنها تريده، بحاجة إليه.

قطع عليها أفكارها: «إنك لم تجيبين على سؤالي. هل سيكون ابنك سعيداً هنا؟»

«نعم، آه، نعم. إنني واثقة من ذلك.»

«وهل سيقبل بي والداً؟»

«طبعاً سيقبل.»

«سنرسل بطلبه اليوم.»

اليوم! واكتسحتها بهجة عارمة. إنه سيرسل بطلب بيتي اليوم. سيحضره إلى هنا، ليربيه! لكن بيتي لم يكن سوى طفل صغير واحد، وما زال هناك خمسة عليه أن يعلم عنهم. لقد كان قال إنه يريد أسرة، ولكن هل هناك رجل بكامل عقله يقبل بستة أولاد؟ لكن، عليها أن تخبره. لا يمكنها أن تهجر إخوتها. فقد كانت وعدتهم بأن تهيىء لهم بيتاً يعيشون فيه، لكن هذا لا يعني أن عليها أن تخبره في هذه اللحظة.

ستخبره فيما بعد. عندما يعرف كم تحبه. كان هذا هو رجاؤها الوحيد، في الحقيقة، وهو أن تقنعه أولاً بأنها تحبه، وأن تجعله يحبها، ويتكهن بمبلغ السعادة التي سيجدها معها.

قالت له: «كيف يمكنني أن أشكرك؟»

أجاب: «لا أريدك أن تشكريني.»

«أطلب مني ما تريد، أعطك إياه. أي شيء.»

فقال برقة: «أريد كل شيء. أريده لأجلنا، يا كاسي. كل شيء يمكن لشخصين أن يشتركا فيه. هذا ما أريده، وسأحصل عليه ابتداء من يوم الجمعة. إنني واثق من ذلك حقاً.»

فقالت: «ليس علينا أن ننتظر إلى يوم الجمعة.»

فقال ضاحكاً: «بل علينا ذلك. أعتقد أن الأمور الهامة يجب أن نقوم بها على الوجه الصحيح. وأظنك تعتقدين ذلك أنت أيضاً. لكنني مسرور إذ أراك متلهفة إليّ مثلي إليك.»

شملتها موجة عجب، ونظرت في عينيه البنيتين الرقيقتين وقد ارتسمت على شفتها ابتسامة وهي تقول: «آه، ياليون. آه، ياليون. كم أنا محظوظة. كيف استطعت أن أحصل على هذا الحظ؟»

فقال: «ربما هو الوقت المناسب تماماً لتغيير الحظ، بالنسبة إلينا، نحن الاثنين.»

• • •

وصلا إلى المدينة متأخرين، ولكنهما عند العصر، كانا يمتلكان رخصة الزواج وقد تملكهما الزهو. هذا إلى خاتمي

زواج ذهبيين وكذلك وصل بتذكرتي سفر بالباص من غرب فيرجينيا إلى تكساس وإذ كان بيتي أصغر من أن يسافر وحده، فقد قررا أن نيوت أخاها الأكبر، قد يتمكن من الحضور معه. فقد قال ليون بدماثة، إنه يرحب بزيارة شقيق كاسي الفنان. وبعد، فسرعان ما يصبحون أقرباءه بالنسب، اقترحت كاسي، بعفوية، أن نيوت قد يتمكن من مساعدة ليون في المزرعة، لكن ليون أشار إلى أن المنزل أصغر من أن يتسع لأكثر منهما، هما الاثنين، وبيتي معهما. عندما يتمكن، سيضيف إليه بعض الملحقات. ولكن كاسي قالت إن هذا المنزل ليس أصغر، في الواقع، من المنزل الذي كانت هي وابنها بيتي واخوتها ووالدها ومارلين يعيشون فيه، لكنها لم تصر على البحث في هذا الأمر. لقد بهتت سعادتها قليلاً، لكن الرجاء تملكها في أن يحب ليون شقيقها نيوت ويجد فيه عوناً يجعله، هو ليون، يصر على بقائه. بعد ذلك يمكنها من أن تكشف أمر إخوتها الباقين بكل حرص، إذ تتحدث عن حاجة التوأمين الماسة إلى يد قوية تنشئهما. عند ذلك سيصبح من السهل، وقد أصبحوا أقرباءه، أن تقنعه بأن يحضر إليه فريدي وبارت. فهي لا تعتقد بأنه لا يمكن إقناعه، أو أنه سيرفض مد يد العون.

أرفقت بتذكرتي السفر رسالة سريعة إلى نيوت، وذلك عن طريق دودي. أخبرت أخاها عن زواجها الوشيك، وطمأنته إلى أن ليون رجل رائع وأن اجتماعهم مرة أخرى لم يعد سوى مسألة وقت. لم تتمكن، لنفاد وقت مكتب البريد، من أن تتوسع في وصف جمال المزرعة.

بعد ذلك تناولت عشاءها مع ليون في مطعم للشواء، ثم اتخذا طريقهما نحو المزرعة.

كانت الأيام التالية مليئة بالتوقعات. لقد استمر ليون في الخروج إلى عمله قبل بزوغ النهار. والأمسيات يمضيانها معاً جنباً إلى جنب. لكنهما كانا حريصين على أن لا يتركا الأمور تفلت من أيديهما. تحدثا عن العرس، وعقدت الترتيبات بواسطة الهاتف. كان أول ما فعله هو ابلاغ اصدقاءه. كاتر ودولوريس باترسون ذهلا للأمر، ولكنهما هنآه بحماسة مناسبة مصرين عليه أن يقيم حفلة العرس في منزلهما. لم تهتم كاسي بذلك حيث انها كانت سعيدة بزواجها من ليون حتى ولو حدث ذلك في الشارع. لكن ليون بدا مسروراً للغاية بذلك. وقررا أن يقيما العرس عند العصر لكي يتمكنا في الصباح من شراء ملابس العرس.

على كل حال، فقد استيقظت صباح الجمعة حوالي الفجر واتجهت إلى المطبخ لتجد ليون وقد ارتدى ملابسه وجلس يرشف فنجاناً من القهوة: «هل أنت جائعة؟»

هزت برأسها، قائلة: «بل متوترة كما أظن. ولكنني سأجهز لك شيئاً.»

فقال: «كلا. كنت أفكر في تناول افطار متأخر في مقهى صوفي.»

«هذا حسن. سأسرع في ارتداء ملابسي اذن.»

عندما وصلا إلى مدينة فان هورن، كانت الشمس قد اعتلت قبة السماء. تناولا الافطار في مقهى صوفي، ثم حجزا مكانا لقضاء عطلة نهاية الاسبوع في فندق هناك.

كان هذا فندقاً لطيفاً حسناً بالنسبة إلى حجم المجتمع الصغير، ما أدهشها. كان هذا أول تجربة لكاسي في الاقامة في الفنادق. لقد سرّ ليون لسرور كاسي وأعلن بصوت عال أنه سيأخذها في أول ذكرى سنوية لزواجهما، إلى فندق فاخر حقاً وذلك في مدينة الباسو. كان في مجرد حديثه عن الذكرى السنوية الأولى للزواج، ما جعل دموعها تنهمر. وقد ضحك هو لذلك ثم أخذها للتسوق.

كان ليون مصمماً على أن يكسو كاسي من كل شيء وذلك رغم اعتراضها، فاشترى لها عدة أزواج من سراويل الجينز، وبعض القمصان الجميلة للغاية وزوجين من الأحذية الطويلة. كما اشترى لها قبعتين واحدة بيضاء ذات حواف مخرمة، وأخرى من الفراء. وبعد كثير من التفكير وتغيير الأثواب، استقر رأيها على تنورة طويلة ذات توشية هندية باللونين الأبيض والتبني، ويعلوها قميص أبيض مناسب. لكن ليون أعجبه ثوب معه سترة تصل للخصر. وذعرت عندما اشترى لها الاثنين معاً.

كانت حاولت أن تقول له إنها تفضل لو ينفق نقوداً أقل على الملابس، وذلك لكي يشتري أشياء أخرى مثل دهان للمنزل وبساط أو اثنين متألقي الألوان بدل ذلك البساط البني الذي يغطي أرض غرفة الجلوس. كان جوابه هو أن أخذها إلى المتجر الذي يبيع الاثنين. عندما رفضت بعناد أن تختار الألوان، قام بذلك بنفسه. مختاراً أغرب الألوان غير المعتادة.

عند ذلك دخلت بسرعة لتسدد خطاه في ذلك... ومن ثم انتهيا بشراء دهان ومعداته كافة.

تملك كاسي الفزع لكمية النقود التي أنفقاها في ذلك اليوم، لكن ليون كان مسروراً تماماً.

قالت تناقشه: «إنك كنت توفر نقودك لتشتري تلك الثمانية آلاف فدان.»

قال بمرح: «معك حق. ولكنني الآن عليّ أن أحسب حساب أسرتي.»

«أسرتي؟» وابتسمت وهي ترفع إليه بصرها هامسة: «هل تعرف كم أنت رائع؟»

فقال: «إنني أكثر الرجال الرائعين حظاً هنا.»

نظر في ساعته ثم هتف يقول إن الوقت بالكاد يكفي لأخذ المشتريات إلى الفندق، ثم الذهاب إلى منزل آل باترسون لارتداء ثياب العرس. كان موعد هذا في السادسة، أي بعد اربع ساعات تقريباً. لكن إذا قال ليون أن عليهما أن يسرعا، فإن عليها أن تسرع. ووصلا إلى منزل آل باترسون في خلال ربع ساعة.

كان كاتر باترسون صاحب مصرف، وكان منزله واسعاً مبنياً من القرميد، بينما طريق منزله ترابياً والفناء يغطيه العشب المشذب.

فتحت زوجته دولوريس الباب، كانت سيدة رشيقة طويلة القامة ذات بشرة سمراء داكنة ورثتها عن والدتها المكسيكية، شعر بني اللون وعينين زرقاوين ورثتهما عن والدها القوقازي. ابتسمت لهما وهي تصافح ليون أولاً، ثم كاسي: «تفضلا بالدخول. لقد جئتما في الوقت المناسب تماماً.»

فقال ليون: «الوقت المناسب لماذا؟»

أجابت وهي تنظر إليهما من فوق كتفها وتسير أمامهما برشاقة إلى غرفة الجلوس، أجابت قائلة: «للغداء.» ثم صاحت تخاطب شخصاً في الداخل: «أضف مكانين إلى المائدة، يا عزيزي، واستعمل صحون الكرتون، فأنا لا أريد أن أغسل الأواني طوال النهار.»

في غرفة الجلوس بسطت ذراعيها تشير إلى ما حولها وهي تخاطب ليون وكاسي قائلة: «ما رأيكما؟» لم تكن كاسي قد رأت مثل هذا المنزل الجميل من قبل. كانت الغرفة فسيحة ذات جو بارد منعش وكان السجاد وورق الجدران والأثاث، كل ذلك وردي اللون موشى بنقوش ذات لون تركوازي وأبيض. كانت هناك مصابيح ضخمة ومناضد، كما تدلت من السقف مراوح كانت تدور ببطء كما كانت هناك ايضاً مدفأة من القرميد الأبيض فوقها مرآة ضخمة مساحتها لا تقل عن ستة أقدام، بينما كانت الأزهار في كل مكان.

هتف ليون يقول: «ما كان لك أن تفعلي كل هذا.»

ظهر كاتر باترسون عندالباب مرتدياً بنطلوناً ذا لون أزرق داكن وقميصاً أبيض وربطة عنق سوداء. بدا أكبر سناً من ليون وقد اختلط لون شعره بين الشقرة والبياض، كان وجهه أكثر استدارة من أن يعدّ وسيماً بالشكل المتعارف عليه. لكن مظهره إجمالاً كان يبعث على الرضى، وكان الذكاء الحاد يتألق في عينيه البنيتين. قال ضاحكاً: «أتظن أننا سندعك تتزوج دون الاحتفال بذلك؟ ثم ألا تعلم أن دولوريس لا يمكن أن تدع فرصة كهذه تمر دون أن تستغلها في التسوّق؟ لقد كانت في الباسو هذا الصباح قبل أن تفتح

المتاجر أبوابها. فاشترت حانوت أزهار بأكمله. إنها منذ أشهر لم تبتهج بشيء مثل الآن.»

هتفت دولوريس: «آه، ثم انني اشتريت لكما هدية زواج رائعة. إنها طقم صحون مصنوعة من الفخار الثقيل من صنع الهند... حسناً، لا أتذكر أين. هيا معي وسأريكما إياها.»

سارت أمامهما إلى المطبخ حيث أرتهما كل شيء. كانت الصحون في صناديقها الكبيرة موضوعة على المنضدة، حمراء ثقيلة في وسطها دائرة صفراء وخط ذو لون توركوازي على الحافة الخارجية. شغفت كاسي بها كثيراً على الفور. فهي لم تحصل على طقم كامل من الأطباق طوال حياتها ما جعلها تضم طبقاً منها إلى صدرها وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

فقال ليون وهو يضع يده على كتف كاسي يخفف عنها: «شكراً يا دولوريس.»

فقالت كاسي: «نعم، شكراً.»

أجابت دولوريس: «كان هذا سروري، يا عزيزتي. صدقيني إنني أعيش فقط لأجل التسوق.»

أخذت كاسي تضحك: «حسناً. إنك وليون متناسبان تماماً في هذا الشأن. فقد كان ينفق النقود هذا الصباح وكأنها ماء.»

رفعت دولوريس حاجبيها قائلة: «هذا يعجبني.»

فقال ليون: «نعم، حتى إنني اشتريت سروالين لارتديهما يوم عرسي وأبدو بمظهر لائق. فدليني إلى حيث أنشيّها.»

قالت دولوريس مشيرة إلى باب دوار: «غرفة الغسيل من هنا. ولدي فيها حوض يحتوي على نشاء طوال النهار. أصحاب المصارف عليهم أن يبدو في أحسن مظهر على الدوام.»

سألت كاسي ببراءة: «ولماذا؟»

بدت الدهشة على دولوريس: «لماذا؟ لكي يبدو القماش صقيلاً خالياً من التكرش والتجعدات.»

نظرت كاسي إلى بنطلوني الجينز المطويين كالورق بين ذراعي ليون، وقالت: «ولكنها غير متكرشة الآن.»

شبكت دولوريس ذراعيها ورفعت حاجبيها: «يا حلوتي، إنها ليست منشاة بشكل كاف بالنسبة إلى راعي بقر. أنا شخصياً أفضلها منشاة لأنها تجعلك، إذا أنت ارتديتها، تتحكمين في نفسك. ومرة أخرى، لا أراك بحاجة إلى تحكم كثير في نفسك، أليس كذلك.»

ردت كاسي بحدة: «أكثر منك.»

أشرق وجه دولوريس: «كنت أعلم أننا سنصبح صديقتين.»

ضحكت الاثنتان، وتركهما ليون ليقوم بتنشية بنطلونه. جلست دولوريس أمام المنضدة ودعت كاسي إلى الجلوس معها، بينما كاتر أخذ في اعداد غداء مؤلف من سندويشات لحم وبيض. أما ما تلا ذلك فقد كان شواء لا صلة له بالطهي. كانت دولوريس تلقي بالأسئلة جزافاً، وكانت كاسي تجيب عليها بحذر قدر الإمكان. في غضون دقائق كانت قد كشفت عن كل ما كانت تخشاه، وأخذت تشرح أمر زواج والدها الثاني.

وضعت دولوريس مرفقها على ظهر الكرسي وقالت: «يا للعجوز المخيف الذي يتزوج ابنة السابعة عشرة.»

أومأت كاسي قائلة: «لا يمكن اعتبار مارلين غير ملومة تماماً. أما ما الذي تريده من والدي، فهذا ما لا أعرفه. إنه متألق وسخيّ.»

فقالت دولوريس: «ربما إذا أعجبها رجل آخر، ستترك والدك في الحال.»

قالت كاسي: «وربما يحدث العكس. فالنساء تتهافت عليه لا أدري لماذا.»

تمتمت دولوريس: «يبدو أنه مثل كاتر.» فجمدت كاسي ذاهلة، أدركت على الفور أنه كان واقفاً خلفها مباشرة. لوحت دولوريس بيدها باهمال قائلة: «لا تسيئي فهمي. إنه لا يتصرف بحماقة هنا وهناك. فهو لا يجرؤ، ولكن هذا لا يمنع النساء من القاء أنفسهن عليه. في الواقع، لا شيء يجعل الرجل جذاباً أكثر من المال. والآن، بالنسبة إلى ليون، فهو ليس بحاجة إلى المال لأجل أي شيء. كيف تعارفتما، على كل حال؟»

توهج وجه كاسي: «حسناً، إنني...»

قاطعها ليون من خلفها يقول: «لقد كنت نشرت اعلاناً في الصحف.» التفتت كاسي إليه بنظرة متوسلة، فاومأ برأسه ثم نظر إلى كاتر يكرر كلامه بهدوء: «لقد كنت نشرت إعلاناً شخصياً في مجلة تتعلق بشأن تربية الخيل. كان أن قرأت فيها صديقة لكاسي، فأجابتني عليه نيابة عن كاسي. في النهاية أقنعت الصديقة كاسي بالكتابة إليّ. وقد أمضينا شهوراً نتبادل الرسائل، ومنذ أسابيع قليلة أحضرتها إلى

هنا في زيارة. قررنا أن تصبح الزيارة هذه دائمة. وفي الواقع...» تابع وقد عادت نظراته إلى كاسي: «لقد نجحت الأمور بشكل أفضل كثيراً مما كنا نتصور.» وابتسم. كانت ابتسامة خاصة، دافئة مليئة بالآمال فنهضت وسارت إلى جانبه ترفع نظراتها إليه، كانت تنضح حباً وعرفان جميل ولم يلحظ أي منهما تلك النظرة الخاصة التي تبادلها كاتر وزوجته دولوريس. كانت نظرة أمل بقدر ما هي نظرة اهتمام.

الفصل الخامس

ارتدت كاسي ثوب الزفاف قبل أي شخص آخر في المنزل، بوقت طويل، طافت في غرفة الجلوس بين باقات الأزهار، تشتم روائحها العطرة، محاولة ان تنبذ ما ساورها من شكوك أزعجتها، لم تكن لتلك الشكوك علاقة بزواجها من ليون أو عدم زواجها، انها فقط تتعلق بما تقترفه من أكاذيب.

لقد كانت وعدت اخوتها بأن تهيء لهم منزلاً يعيشون فيه، وكانت تريد ان تنفذ وعدها ذاك فهي قد جاءت إلى تكساس لهذا السبب في البداية. لكن ذلك كان في البداية فقط، فهل سيصدق ليون هذا؟ الأفضل ان لا يعلم بذلك ابداً، وان تعيش هي مع هذا الشعور بالذنب بقية حياتها، على ان تخيّب أمله، ولكنها مع ذلك لا تستطيع ان تهرب من الشعور بأن عليها أن تخبره، ومن المضحك أنها شعرت بشيء من الارتياح عندما وصلت في طوافها إلى قرب الردهة فسمعت من الحديث ما عرفت منه ان ليون لم يخبرها هو أيضاً بكل شيء، وكان كاتر يقول له: «ألا تظن ان عليك استدعاءهم اليك فيما بعد، على الأقل؟»

أجاب ليون: «كلا، انهم سيعرفون قريباً، فأنا أريد قضاء بعض الوقت معها قبل ان ينقضوا علينا، وأنا لا أطلب الكثير، أليس كذلك؟»

«ولكنهم أسرتك، والدتك، على الأخص، لها الحق في ان تعلم بزواجك.»

فرد ليون بحدة: «لا أريد الإذن من والدتي كي أتزوج، أو من أي شخص آخر.»

قال كاتر برقة: «انك تعني ديل؟»

أجاب ليون متهكماً: «ليس لدى ديل أي حق عليّ.»

«ولكن هذا ليس رأيه بالضبط، فما دام يعتبرك أخاه الأصغر، فمن واجبه أن يحميك من القيام بأي شيء...»

رد ليون سخاطاً: «لا أريد منه هذا، فأنا لست مجرد شقيق، بل انا رجل مستقل بنفسي، وأعمل ما أراه مناسباً، بما في ذلك الزواج، وهكذا ما يقول أو يفعل لن يغير من الأمر شيئاً، يا كاتر. ليس من أجلي، على كل حال.»

أجابه على الفور: «من أجل كاسي.»

قال ليون: «نعم، كاسي، انك تعلم ما قد يفكر فيه أو يقوله عن كل هذا، انني سألكمه على وجهه، يا كاتر.»

قال كاتر محذراً بلطف: «هذا سيكون عاجلاً أم آجلاً، يا رجل.»

قال ليون بفظاظة: «فليكن آجلاً، إذن.» وأدركت كاسي من خطواته أنه كان يقترب من الغرفة التي كانت تقف فيها.

تراجعت إلى منتصف الغرفة حيث وقفت مشبكة اليدين بهدوء، ألقى نظرة واحدة عليها وإذا بتجهم وجهه يتبدد، فشعرت بالدفء من نظرته تلك. لا بأس، قد لا يحبها شقيقه، ربما أسرته بأجمعها ستذعر عندما تعلم بأنه تزوج من امرأة تعرف اليها عن طريق الاعلان، وربما هما الاثنين، لم يكونا صادقين مع بعضهما البعض، لكن هذا لا يعني انه ليس عليهما ان يعيشا معاً، مهما كانت اخطاؤها الأخرى،

فزواجها من هذا الرجل هو الشيء الصواب، كانت تشعر بذلك غريزياً، مهما كان رأي الآخرين، بما فيهم شقيقه ديل، مدّت إليه يدها، وقبل ان يتقدم إليها إذا بجرس الباب يقرع، فجأة اندفعت دولوريس داخلة إلى الغرفة تحيط بها سحابة من العطر وفي إثرها كان رجل الدين.

قبل ان تدرك كاسي ما كان يحدث لها، كانت تقف إلى جانب ليون، ممسكة بباقة زهور بيد... مواجهة كاتر وزوجته، بينما ليون يضع في اصبع يدها الأخرى خاتم الزواج، ثم انتهى كل شيء، نظرت إلى عينيه المتألقتين وسمعته يهمس قائلاً: «ها قد اصبحنا معاً، على الدوام.»

أدركت في هذه اللحظة ان كل مشاكلهما ستنحل تلقائياً فهي لا يمكنها ان تصدق أي شيء آخر... كلا، لا يمكنها ذلك.

• • •

تعجل ليون بإخراجها من هناك، ففي سرعته هذه قلة ذوق، رافضاً ما عرضته عليه دولوريس من تناول عشاء العرس، وذلك بكل ما أمكنه من رقة، كان كاتر في النهاية، هو الذي أسكت زوجته إذ جاءها من الخلف، فوضع يداً على كتفها، واليد الأخرى على فمها وهو يقول غامزاً بعينه: «سنراكما فيما بعد.» ضحك ليون وهو يدفع كاسي أمامه إلى الخارج.

قالت له كاسي: «كان ذلك غلظة منك.» لكن تألق عينيها وابتسامتها الواسعة كانت تخالف معنى كلماتها.

سألها: «اتريدين ان تعودي إليهم؟» ابتسمت وهزت رأسها نفياً.

«هيا بنا إذن.» سحبها من يدها إلى الشاحنة حيث اصعدها إلى المقعد وصعد بجانبها وهو يقول: «لقد كاد يقتلني الانتظار.»

همست: «وأنا أيضاً، لكن الحق معك، إذ كان من الأفضل أن نخرج.»

بعد ذلك شعر بأنه اعظم رجل في العالم، وأن لا احد بإمكانه أن يجادله بما فعل وكيف. حسناً، ربما هناك شخص بإمكانه ذلك، وهو ديل، لكنه لا يريد الآن ان يفكر بديل أو أي شخص ما عدا عروسه. زوجته انه رجل متزوج، شعر بروعة ذلك وهو يتجه نحو الفندق، وعندما وصل إلى هناك، جاهد في كبح نفسه من أن يقفز من الشاحنة، أوقفها متمهلاً قدر امكانه، مطفئاً المحرك، ثم نزع المفاتيح، مبتسماً بطريقة كان يرجو ان لا تظهر مدى توتره، وادهشته هي بهدوئها.

سألها: «السنا داخلين إلى الفندق؟»

«بالتأكيد.»

«إذن.» بقي ينظر اليها، بحيرة وسرور، فضحكت قائلة: «تحرك إذن، يا راعي البقر، ان بين يديك عروساً يملأها الشوق.»

عند ذلك قفز من الشاحنة وهو يجذبها معه جاراً إياها على السلم وهو يصعد كل درجتين معاً، وعندما وجد الباب مفتوحاً، وقف، ثم استدار يواجهها قائلاً: «المفروض ان اقوم بذلك على عتبة بيتنا.»

أذهلته النظرة الحالمة التي بدت في عينيها وهي تردد كلمته: «بيتنا.»

قال: «مرحباً بك أيتها السيدة كاسي بارادايس، في بيتك.»

أجابت برقة: «شكراً يا سيد بارادايس.»

قالت: «كم انا مزهو وسعيد و...»

لم يعد ثمة مكان للكلمات أو لأي شيء عدا حبهما، وبأنها اخيراً اصبحت زوجته كما انه اصبح زوجها.

* * *

اتصلا هاتفياً لإحضار البيتزا اليهما حوالي الساعة العاشرة، أكلا في الغرفة ضاحكين، وفي الصباح تأخرا في النوم، كما تأخرا اكثر في النزول إلى الغداء، لقد دعتهما صوفي إلى تناول الطعام في بيتها عندما علمت بالخبر.

قال ليون: «يناسبك ان تكوني وسيطة زواج، يا صوفي، وأنا سأكتب لك تزكية بذلك.»

قال الجملة الأخيرة وهو يغمز كاسي، فابتسمت هذه له وقد تملكتها سعادة لا تصدق.

بعد ذلك اخذها بجولة في المدينة، حيث أراها معالمها، مشيراً إلى حيث مزارع الماشية التي تحيط بالجبال، واعداً إياها بأن يأخذها، قريباً جداً، إلى حيث تتفرج على مرصد ماكدونلد الفلكي في جنوب شرق البلاد وكهوف كاريسباد في شمال جنوبها، ثم هناك مدينتا الباسو ومكسيكو، وبعد تلك الجولة الرائعة، عادا إلى الفندق، حيث طلب منها ان ترتدي الثوب الذي كان اشتراه لها قائلاً انه يريد ان يتباهى بها بين الناس.

كان في نفس الفندق مطعم تعزف فيه فرقة موسيقية الحاناً من أوروبا اللاتينية، ووصلا اليه متأخرين ما لفت

اليهما الأنظار حالما دخلا من الباب، كان الزوجان باترسون هما اللذان بادراهما بالتحية، ولكنهما سرعان ما وجدا نفسيهما محاطين باصدقاء ليون، فقد كان الخبر قد انتشر، وقدم ليون كاسي بقوله: «عروسي الصغيرة.» وبسرعة اخذ الزوجان باترسون يكرران التفاصيل لكل من لم يسمع بالخبر. انتقلوا جميعاً إلى منضدة حيث أخذا هما يستمعان إلى الملاحظات المتعلقة بالزواج بالبريد، وذلك بمزاج حسن. لكن كما قالت سيدة شابة، كان من الصعب مناقشة النجاح البادي امامهم.

قالت دولوريس ما جعل كاسي تحمر خجلاً: «يبدو واضحاً انك واقعة في الغرام.»

قال زوجها: «أو ربما هي حرارة الجو.» ضحك الجميع، ونظر ليون إلى عروسه غامزاً بعينه وعلى وجهه ابتسامة عريضة توحي بأنه لا ينقصهما شيء، فحاولت هي بدورها، وقد تملكتها سعادة طاغية، ان تريه بنظراتها، مبلغ حبها له.

قال لها ليون وهما بمنأى عن مسامع الآخرين: «انك راعية بقر بالغة الأناقة في هذا الثوب، يا سيدة بارادايس، انني لا استطيع الانتظار لإخراجك من هنا، اكثر من ذلك.»

في عصر اليوم التالي، عادا إلى المزرعة، وقد اعتذر ليون عن قصر شهر العسل هذا، لكنها ضحكت وقالت له بصدق ان مجرد كونه معها هو شهر عسل بالنسبة إليها.

قال: «لكن لديّ عمل يجب ان اقوم به، يا حلوتي. لو استطعت لبقيت طوال أيامي بجانبك، لكن مزرعتنا هذه بحاجة إلى عناية دائمة.» (لكن مزرعتنا). وكانت ابتسامتها له مشحونة بالمشاعر. فقد منحها كل ما أنفق جهده على

إقامته بكل سهولة، لقد كان كل ما امتلكاه هي وجوزيف، وهو قليل، قد اكتسباه، هما الاثنين، معاً، لقد حيرها ان يبذل ليون كل ذلك الجهد في العمل ولمدة طويلة، وينجز كل ذلك وحده ومع ذلك يريد من كل قلبه ان يشركها به بكل سخاء وحب.

قالت له بسعادة: «لا بأس، ستكون لدينا الأيام نمضيها معاً.»

«نعم يا حبيبتي، ستكون لدينا الأيام على الدوام.»

ضحكت قائلة: «وبجانب ذلك، إذا كنت لم تلاحظ ان لدي الكثير من العمل، أنا أيضاً.»

«افهم ان لديك الكثير من اعمال المنزل لا اعرفها، واظنك تجهزين الأمور لاستقبال الصبي، أليس كذلك؟ ثم هناك شيء آخر، إذا لم تكوني مشغولة.»

رفعت رأسها تنظر إلى جانب وجهه القوي: «وما هو؟»

أصلح من جلسته خلف عجلة القيادة، وقال متردداً: «فقط مادمنا وحدنا، لا اريد ان استمر في اخذ الدوش البارد ذاك كل يوم... فإذا امكنك ان تؤمني لنا بعض الماء الساخن...»

اجابت: «يمكنني القيام بذلك.»

• • •

كانا سعيدين... سعيدين للغاية، ذلك النوع من السعادة الذي يشيع الرضى حولهما، كانت كاسي تمضي ايامها في تنظيم الخزائن، وصنع الرفوف، غسلت النوافذ والجدران والأرض ونفضت الأبسطة، لكنها عندما سألت ليون عما إذا كان بإمكانها ان تطلي خزائن المطبخ وكذلك جدرانه، ضحك

وقال انه بإمكانها طلاء كل ما تريد حتى نبات الصبار إذا كان هذا يسرها.

كان ليون متسامحاً في شؤون منزله، فقد قال لها انه لا يهتم بما تفعله بالبيت مادام مازال قائماً عندما يعود من عمله كل ليلة، وهكذا اخذت كاسي تنقل قطع الأثاث، كما نقلت بعربة اليد كل ما وجدته غير ضروري إلى المخزن. كانت توسع المكان قدر الامكان، ولم يكن ليون من الغفلة بحيث لا يلاحظ ذلك. فقال لها ذات مساء بعد ان سألته عن امكانية احداث مساحة اكبر من المنزل قال: «انني اعرف ان المنزل صغير، ولكنني انوي بناء ملحقات له قريباً، ولكن إذا كنت تظنين ان بإمكاننا الصبر قليلاً بعد وصول بيتي الصغير، فأنا أظن من الحكمة ان نحصل على تلك المزرعة أولاً، ان اطعام بقرة هنا يكلف كثيراً، وتربية كل رأس من الماشية يستحيل إلى نقود تملأ جيوبنا، فالأسرة تحتاج الى اكثر من شخص واحد لاعالتها، واظن ان علينا ان نفكر في ذلك.»

رسمت على وجهها ابتسامة مشرقة واخبرته بأن الحق معه، طبعاً، لكن الوقت الذي بإمكانها ان تحضر فيه اشقائها، أحست به يزداد بعداً بدلاً من ان يزداد قرباً، إلى متى يتمكن والدها من تحملهم؟ وهل هم سالمون الآن بالذات؟ هل يفتقدونها؟ هل ينامون كل ليلة وهم يظنون ان الغد هو اليوم الذي ترسل فيه بطلبهم؟ وحدثت نفسها بأنها قد اصبحت عاطفية اكثر من اللزوم، لكنها لا تستطيع ان تهرب من الشعور بأن غمامة سوداء تحوم فوق المها الذهبي السعيد.

لقد اتصلت دودي بها لتخبرها بأن الترتيبات لحضور نيوت بصحبة الطفل في الباص في نهاية الأسبوع القادم، قد تمت، وهكذا لن يطول الوقت بها الآن قبل ان يكون الاثنان معها. عزمت ان تقنع ليون بإبقاء نيوت هنا، لكن هذا يترك فريدي وبارت وكيلر وكول وحدهم مع تشينتز ومادلين، وهذا أمر يقلقها، فالتوأمان لم يكونا من القوة بحيث يحميان الولدين الأصغرين، فقد اعتادا الإبتعاد كلما تأزمت الأمور، لكن هذا يترك فريدي وبارت وحدهما في مواجهة حقد مارلين وخساسة والدهما تشينتز. تذكرت نظارات بارت المسكورة وعضت شفتها، كيف سيتمكن من الرؤية إذا ما اطاح تشينتز بها مرة أخرى؟ وكيف سيتمكن فريدي من الاستمرار بالمزاح إذا ما ضربته مارلين؟

لكنهم بشكل ما، سيكونون على ما يرام، كان عليها ان تعتقد ان الغلمان سيكونون على ما يرام، وإلا فالذنب الذي تشعر به لهذه السعادة التي تتملكها بينما هم ما يزالون في ذلك الوضع البالغ السوء، الشعور بالذنب ذاك سيسحقها وسيدمر أي فرصة تسنح لإحضارهم ليعيشوا معها ومع ليون، عليها بالتعقل، عليها أخذ الأمر بروية، ان تجعل ليون يعتاد على هذه الفكرة تدريجياً، انها ستقنعه، بشكل ما، بأن بإمكانهم جميعاً العيش معاً، وان الغلمان لن يسبّبوا له اية مشاكل، حتى الآن لا تدري كيف بامكانها تنفيذ ذلك سوى بالحب الذي ستغدقه عليه، كما وستريه مقدار المشقة التي تتحملها لكي تأخذ عنه أعباء المنزل.

عندما حان الوقت ليذهبا إلى المدينة لملاقاة نيوت وبيتي، كان المنزل يتألق نظافة ونظاماً، وقد أدهشها ليون

بإحضاره باباً لغرفة نومهما. كان مكوناً من الواح خشبية كانت في المخزن، وقد دهنته هي شاكرة له لأنه وفرّ لهما الشعور بالإنفراد.

قال وقد أشرق وجهه بالابتسام: «حسناً، لا ادري عنك انت، ولكن بالنسبة إليّ فإن شهر عسلنا مازال بعيداً من ان ينتهي.»

لقد كانت تبذل جهدها في ان تجعله يرى مبلغ سعادتها في استمرار شهر عسلهما، لكن رغبتها الأهم في تلك الاثناء، هي ان تكون في محطة الباص عند وصول ابنها، ولم يضغط هو عليها، إذ يبدو انه كان متفهماً مبلغ لهفتها لرؤية ابنها لأول مرة بعد فراق دام حوالي شهر، ويا ليته يعلم كم شعرت بالحب له لأجل هذا، لكنها لم تخبره. كانت تريد رؤية ابنها مرة أخرى، وان تتحدث إلى نيوت على انفراد قبل ان يقول لليون شيئاً لا ينبغي ان يقوله... كان كل ذلك قد أذهلها عن كل شيء حتى عن التفكير ولو مرة في انه من الأسهل عليها اخبار زوجها بمبلغ حبها له على ان يخبرها هو أولاً بأن مشاعره نحوها تماثل مشاعرها عمقاً.

أسرعا في السفر قبل موعد وصول الباص بوقت طويل، لكن بعكس ما كان عليه الحال ليلة وصول كاسي، فإن الشوارع لم تكن مهجورة. حالما دخلا المدينة، توقفت شاحنة كانت تسير في الطريق المعاكس ثم استدارت لمواجهتهما كانت أنوارها تنخفض وتعلو، وعرف ليون انها تعود إلى شخص كانا قد تعرفها اليه في السهرة في الفندق بعد زواجهما، فأخرج ذراعه من نافذة السيارة وأشار إلى

الشاحنة لتتبعه. عندما توقفا في الموقف امام مقهى صوفي، كانت الشاحنة الأخرى خلفهما مباشرة، كما كان الباص قد وصل أيضاً، مبكراً عن موعده.

قال ليون وهو يفتح لها الباب: «إذهبي انت واستقبلي الطفل، ان لي كلمة مع هذا الشخص وسألحق بك بعد دقائق، انها فرصة لك للإنفراد به.»

ابتسمت كاسي، يبدو ان الحظ سيكون كريماً معها، إذ بإمكانها الآن ان تقول لشقيقها عدة كلمات مختصرة تحذره فيها قبل وصول ليون. نظرت إلى زوجها بثيابه الأنيقة ووجهه الحليق، فبدا لها غاية في الوسامة، ما شعرت لذلك بزهو بالغ في ان تكون بجانبه، متلهفة إلى ان يتعرف اليه نيوت وبيتي. اسرعت إلى خلف المبنى، وكان سائق الباص مشغولاً برص نصف دزينة من صناديق الكرتون، يبدو ان مدينة فان هورن كانت مقصد عدة مسافرين هذه الليلة. لم تفكر في ذلك طويلاً وهي ترى نيوت ينزل من الباص وبين ذراعيه بيتي نائماً، انهما هنا، واندفعت إلى الأمام متلهفة إلى معانقتهما، وإذا بشخص آخر ينزل خلفه، شخص عرفته للحال رغم انه كان من دون نظارات.

هتفت بصوت عال وهي لا تصدق عينيها: «بارت.»

اتجه نحوها، وعلى فمه ابتسامة، ولكن قبل ان تتبدد الصدمة التي شعرت بها، إذا بصدمة أخرى، حيث ان التوأمين كانا يجران فريدي الذي كان يترنح، وكل منهما يمسك بذراع الآخر، وإذا بصوت نيوت يهتف بها بصوت أبح قائلاً: «اخفضي صوتك يا كاسي، أتريدين ان توقظي الطفل؟»

اقترب منها وهو يبتسم معتذراً: «مرحباً يا شقيقتي، هل انت

مندهشة لمجيئنا؟» مندهشة؟ ووضعت يدها على رأسها، والفرح البالغ لرؤية هؤلاء الصغار، يتملكها ممتزجاً برعب لا يوصف، لم يكن يحتل عقلها سوى فكرة واحدة، الستة بأجمعهم! الستة بأجمعهم، ولكن المعنى الفظيع لهذا لم يغب عنها، لقد علمت ويا لهول ما علمت، ان عالمها الصغير الرائع قد انحرف فجأة الآن ليصبح عالماً من مشاعر الريبة والشكوك والأسوأ من ذلك ان شكوك ليون هي حقيقية، ذلك انها منذ البداية، لم تكن تنوي الوقوع في غرامه، فقد كانت تتملكها فكرة ايجاد مأوى لنفسها ولأسرتها وذلك مقابل خدمتها المنزلية له. لكن تلك الفكرة سرعان ما تبددت بعد لقائها به، وتعرفها إليه... آه، أتراه سيدرك مدى حبها له؟ لماذا لم تخبره قبلا بمبلغ ذلك الحب؟

سقطت يداها إلى جانبيها باعياء، وتقدم نيوت منها وكان بيتي قد نهض قليلاً وتعلق بعنق خاله، عندما اقتربا منها أدار وجهه إليها، ثم ابتسم ومد يديه اليها: «أمي.» قال ذلك بصوت ناعس، وغمرها الحب، لابنها ولأشقائها ولزوجها فابتدأت الدموع تنهمر من عينيها، ثم صرخت وهي تختطفه اليها: «آه، بيتي.» فلف ساقيه حول خصرها وألقى برأسه على كتفها، كان ثقيل الوزن، لقد كبر ولم تره وهو يكبر، لكنها لم تستطع ان تفكر في هذا الأمر الآن، لم تستطع ان تفكر في شيء على الاطلاق.

اقترب منها نيوت قائلاً: «لا بأس في حضورنا، أليس كذلك؟ ان هذا ما كنا صممنا عليه، وهو أن نعيش جميعنا هنا معاً، بجانب هذا فإننا لم نعرف ماذا نفعل غير هذا، لقد قال والدي انه لا يقبل بأن يعيشوا معه بعد الآن، كما ان دودي

ليس لديها مكان يتسع لهم، لقد حاولت هي اقتراض أجرة السفر من العاملات معها، ولكنهن امتنعن عن إعطاء شيء، فقط مارجي قالت انها آسفة لأنها لا يمكن ان تعطي اكثر من عشرين دولاراً، لم يكن هناك من وقت للاتصال بك مرة أخرى. قالت دودي انه ربما كان مجيئنا هو الأفضل على كل حال إذ لم تستطع ان تفكر في شيء تعمله غير هذا، اعتقدت بدوري بأنها على حق ما دمت جعلته يتزوجك كما قلت انك ستفعلين ذلك، لقد دفعت مبلغاً كبيراً من المال من جيبها الخاص قائلة بأن لا اخبرك، ولكنني تصورت ان عليك ان تعلمي، على كل حال، سيكون الأمر على ما يرام، أليس كذلك؟»

رددت كلامه ذاهلة: «على ما يرام؟» عند ذلك تخلل مشاعرها شيء ما... بعد ان شعرت بحضور شخص ما، ليون... استدارت، وبيتي بين ذراعيها، كان واقفاً عند زاوية المبنى وابهاماه معلقان في جيبيه، وقد فتح فمه قليلاً مبدياً الذهول.

قال نيوت: «كاسي.» جعلتها نبرة صوته والفزع مما قد يقوله، ان تستدير لتواجهه وهو يتابع: «لا بأس في هذا أليس كذلك؟ لقد جعلته يتزوجك تماماً كما سبق وقلت...»

«نيوت.» لم تعرف ماذا تقول أو تفعل غير ذلك، لقد شعرت بأن ليون خلفها، يتصور ويستنتج. بدا الآن كل شيء صريحاً واضحاً عندما تقدم كول ليقول متذمراً: «ماذا جرى؟ ألم تقل لنا انها وعدت بأن نعيش معهما؟»

انتقلت عينا نيوت من كاسي إلى ليون ثم عادتا إليها مرة أخرى، ثم قطب حاجبيه قلقاً والتفت إلى كول بوحشية

تقريباً: «اقفل فمك، وابقه مقفولاً، انني وكاسي سنهتم بكل شيء، أليس كذلك يا كاسي؟» ونطق بالكلمة الأخيرة بكآبة وخوف وطفولة.

قالت بسرعة: «آه، نعم.» وتابعت بلهجة آلية: «يا لها من مفاجأة، ولكن... كان عليك ان تتصل بي أولاً، فنحن... نحن غير مستعدين بعد... للإستضافة.»

حنى نيوت رأسه، وسمعته يهمس: «آسف.»

انهمرت الدموع على وجنتيها، وهي تغتصب ابتسامة، وانعصر قلبها وهي ترى التعاسة على وجه نيوت، على وجوههم جميعاً، بدا عليهم الضياع، فهي كانت وعدتهم، وعدتهم بالرعاية، واغمضت عينيها لحظة، راجية بمرارة ان يتفهم ليون الوضع، مع انها كانت تعلم ان هذا لن يحصل، لكن مهما حدث فهي عند وعدها، فهم اشقائها. حملت بيتي على ذراعها الأخرى مرحبة وهي تقول: «لشد ما انا مسرورة لرؤيتكم جميعاً.» سرعان ما هجموا عليها، أولاً بارت وقد أشرق وجهه، ثم التوأمان ونيوت.

اما فريدي فتأخر عنهم، يفرك عينيه بقبضتيه ويجول بنظراته حوله، يبدو انه لاحظ راعي البقر ذاك الواقف عند زاوية المبنى، فقرر ان يجرب حظه معه، ورأته كاسي، وهو يتقدم نحو ليون، ثم وقف امامه رافعاً رأسه ليقول: «مرحباً، انا فريدي.»

تمتم ليون مستنتجاً: «واحد من الأشقاء.»

كان فريدي قد رأى من الاخطار ما جعله يدركها على الفور، فالتفت ينظر إلى كاسي قائلاً وهو يتأوه: «انا تعب ولا استطيع التفكير في أي شيء مضحك.»

قال ليون وعيناه في عيني زوجته: «آه، لا اعلم، ألا يضحك الانسان دائماً عندما يجعل من شخص آخر مغفلاً.»

شهقت قائلة: «ليس الأمر بهذا الشكل.»

لكنه استدار مبتعداً، فأغمضت عينيها، وشفتاها ترتجفان، عليها أن تجعله يفهم الوضع، وانها بشكل ما، بطريقة ما، ستجعله يدرك مقدار حبها له، وسيتدبران أمرهما، بأي شكل كان.

الفصل السادس

أخذت كاسي تنظر إليهم مجتمعين في الغرفة الصغيرة وأذرعتهم محملة بالصناديق والصرر والكنزات المتسخة كان بيتي يضع اصبعه في فمه، وشعره منسدل على وجهه. كان النعاس يثقل عينيه بحيث ساورها الشك في أن بإمكانه رؤية شيئاً. كان لهذه اللحظة أن تكون حافلة بحب الأمومة وحنانها لولا زوجها الذي كان يغلي من الغضب خلفها. لقد كان اهتم بادارة المولد الكهربائي عند خروجهما بعد الظهر وذلك ليؤمنا وجود النور الكهربائي عند عودتهما. ساورها شعور بأنه ندم على ذلك بل وندم على كل ما يتعلق بها. كان هذا شعوراً لم تستطع احتماله.

تقدمت بشكل بائس إلى وسط المجموعة، تسوي من شعر هذا، وتربت على كتف ذاك. تمكن بارت من العثور على كرسي فتهاوى فوقه. كان وحده الذي لم يستطع أن يرى حجم بيته الجديد وذلك بسبب ضعف نظره. وتقدمت نحوه تمر باصبعها على حاجبيه، وهي تهمس: «ما الذي حدث لنظارتيك؟»

فهز كتفيه متلهفاً لمعرفة ما سيجيب به الآخرون وكان كل ما قاله: «في مكان ما.»

فقال نيوت باشمئزاز: «إنها مارلين تلك... لا بد أنها هي. إنك تعلمين أنه لم يكن يذهب إلى أي مكان من دون نظارتيه، حتى انه كان ينام بها. وإذا به يستيقظ ذات صباح

وقد اختفت. قالت مارلين إنه لا يستطيع الذهاب إلى المدرسة من دونها، كما قال والدي ان ليس بإمكاننا شراء واحدة أخرى، وأن عليه أن يذهب إلى الجمعية الخيرية للحصول عليها، ولكنني لم أدعه يذهب. لقد خشيت أن يأخذوه وذلك في الوقت الذي جهزت أنت كل شيء لكي نأتي إليكم هنا في تكساس.»

تنفست كاسي بعنف، بينما أرسل نيوت نظرة اعتذار نحو ليون الذي كان واقفاً عند العتبة وعيناه المليئتان بالاتهام لم تتحولا عنها، كما لم ينطق بكلمة واحدة. لكن صمته كان أكثر حقداً من أي كلمة كان سيقولها. أخذت تمر بيد ترتجف، على شعر بارت الذهبي القاتم وهي تطمئنه برقة كعادتها دوماً: «سيكون الأمر على ما يرام. المدرسة لن تبدأ قبل اسابيع وأسابيع. سنشتري لك نظارات غيرها قبل ذلك. أعدك بذلك.»

كان هذا وعداً آخر عليها أن تجد طريقة للوفاء به. شعرت به وكأن حملاً ثقيلاً سقط على كتفيها. لكنها ستجد طريقة ما. على نحو ما. ولم تجرؤ على التفكير كيف. كما أن بارت أراد أن يتحدث عن أشياء أخرى، فسأل بلهفة: «كيف يبدو؟»

علم الجميع أنه يسأل عن المنزل. فأجاب أحد التوأمين وهو ينظر حوله: «إنه صغير.»

أسرع نيوت يصحح كلامه: «بل هو كبير بما فيه الكفاية.»

قال فريدي: «إنه مربع، ومنخفض السقف.»

ضحك الآخرون جميعاً ما عدا ليون الذي لم يقل شيئاً

إنما كان فقط يحدق فيها. حاولت هي تجاهله، لكن تضرعها الصامت لم ينفع. وحولت اهتمامها إلى الوجه الماكر الناظر إليها، قائلة باهتمام: «إنه ليس منخفضاً، يا فريدي، وإنما هو مبني من القرميد. لأن الجو هنا جاف، فالأشياء لا تنتفخ كما هي الحال عندنا في الجبال. وهذا كل شيء.»

«آه.» أخذ ينظر حوله باستحسان جديد. لكن فريدي كما هو معروف عنه، تابع يقول: «هل معنى هذا أن كل الفتيات ذوات اشكال مسطحة؟» ففغرت كاسي فمها، بينما أخذ بارت والتوأمان يخفون ضحكتهم خلف أيديهم. لكن نيوت نظر إلى ليون، ثم قال يزجر فريدي: «هذا يكفي، يا فريدي.»

رفع فريدي حاجبيه وألقى على نيوت نظرة لا يمكن تصور براءتها. غيرت كاسي الموضوع، قائلة بصوت مرتفع: «هناك غرفتا نوم.»

فتح كول الباب المنشأ حديثاً، وأطل برأسه إلى الداخل، قائلاً: «هذه الغرفة فسيحة تماماً.»

فعل كيلر نفس الشيء خلف الستار المسدل على الغرفة الأخرى، ثم قال: «هذه الغرفة ليست أكبر كثيراً من السرير.»

قال فريدي وهو يشير إلى الجدار الشرقي: «لماذا لا يوجد نوافذ هنا.»

أجابت كاسي: «هذا لكي يبقى المنزل بارداً أثناء النهار. هذا هو أيضاً السبب في سماكة الجدران.»

قال كيلر وهو ما يزال يتفحص الغرفة الصغيرة: «يوجد نافذة هنا.»

قال كول: «وهنا أيضاً.»

قالت كاسي ما كان ليون قد سبق وقاله لها: «ذلك لكي تدخل شمس الصباح فتوقظك.» نظرت إلى ليون، فرأت في عينيه اتهاماً جديداً جعلها ترتجف، ثم تابعت قائلة: «هناك حمام، أيضاً ومياه متدفقة لكنها غير ساخنة، كما... أن هناك غسالة كهربائية في الشرفة الخلفية. وهي متصلة بالبطارية بلوح شمسي.» استقبل الغلمان هذا الخبر بتعجب شديد، بينما تابعت هي تقول: «ثم إن أرض المطبخ خشبية لأن قبواً يوجد تحتها.»

قال بارت رافعاً وجهه إليها، محاولاً أن يتصور هذا: «وما ذلك؟»

قالت: «حسناً، هناك في الجبال عندنا غرف مدخّنه لحفظ اللحوم وما أشبه. والقبو البارد نفس الشيء. إنه عبارة عن غرفة محفورة في الأرض إلى حيث البرودة والظلام. ونحن نضع الطعام الذي يفسد سريعاً هناك. وبهذه الطريقة لا نحتاج الى ثلاجة. لهذا لسنا بحاجة إلى ادارة المولد الكهربائي أثناء النهار. هنالك باب يفتح من الأرض ويهبط إلى القبو بسلم. كما هنالك باب آخر في الناحية الغربية من المنزل، كان في الأيام السالفة يستعمل للهرب عند غزو الهنود الحمر. أليس ذلك عملاً ذكياً؟»

هزّ بارت كتفيه، لكن فريدي قال بفضول: «هل كان هنالك غزوات هندية حقاً؟»

رفع بيتي رأسه قدر امكانه وهو يزعق حوله كما يفعل الهنود أثناء رقصهم.

كانت هناك قصة تمنت لو يحدثهم بها ليون، لكنها قالت: «سنتحدث... سنتحدث عن ذلك في وقت آخر.»

قالت هذا، يساعدها في ذلك نيوت الذي تغلب فيه الفضول على الاهتمام، فأخذ يسترق النظر إلى المطبخ.

ثم هتف يقول: «هه... لدينا هاتف.»

اندفع الجميع، حتى بارت الذي لا يستطيع الرؤية جيداً، إلى حيث أخذوا يتفرجون. كما أن بيتي أصغرهم وابطأهم، شق طريقه خلالهم إلى حيث تمكن من الرؤية، هو أيضاً.

قال كول: «حسناً، هذا مدهش حقاً.»

سأل بيتي: «وماذا يفعل الهاتف؟»

أجابه نيوت: «إنه يجعلك تتكلم مع أناس في أمكنة أخرى.»

تأوه فريدي وهو يتراجع عن مدخل الباب، قائلاً: «من المؤسف أن ليس لدينا أحد نخابره.»

قال كيلر: «يمكننا أن نخابر دودي، وندعها تعلم أننا وصلنا بالسلامة.»

التفت نيوت إليه غاضباً: «لا تكن غبياً إلى هذا الحد. إن مثل هذه المخابرات تكلف مالاً.»

قالت: «إننا لن نخابر أحداً. دودي لا تتوقع منا مخابرة، ولهذا فلن تقلق. إنني سأرسل إليها رسالة. والآن لا أريد أن أسمع المزيد عن ذلك.»

قال كول شاكياً: «ولكن، يا كاسي...» عند ذلك دخل ليون إلى المنزل، قائلاً بصوت أكثر عمقاً ورزانة من العادة: «لقد حان وقت نومكم.» أنزل بيتي أصبعه من فمه ونظر إليه بذهول.

شعرت كاسي فجأة بالخوف، والرعب. إنها لا تستحق رجلاً مثل ليون. إنها لا تستحقه، وهي ستفقده الآن. فهو

حسب ما علم عنها، لا يستطيع أن يحتفظ بها معه بعد الآن. لم تستطع أن تتصور ما كان ذلك يعني بالنسبة إلى الغلمان. أرادت أن تنظر إلى المدخل، لكن معرفتها بما سترى هناك منعتها من ذلك. كانت من الارتجاف بحيث لفت ذراعيها حولها لتمنع نفسها من ذلك.

حدثت نفسها، انتهي من ذلك... انتهي. وأخذت تشير إلى أماكن النوم: «سنضع فراش قش على أرض المطبخ لأجل نيوت ويمكن للتوأمين أن يناما في الغرفة الصغيرة. أما الأريكة فسنفتحها لأجل فريدي وبارت. أما الصبي...»

فقاطعها ليون بايجاز: «يمكن للصبي أن ينام معك.»

أدركت ما يعني ذلك شاعرة بالبرودة الشديدة. إنها اذا لم تنم مع ليون فلن يكون لديها وسيلة، فرصة تقنعه بأن يبقيها معه، أن تجعله يصدق صدق مشاعرها تجاهه. استدارت إليه ولكنها لم تستطع أن تنظر في عينيه وهي تقول بلهجة حاولت جعلها مرحة: «لا تكن سخيفاً. بإمكانه أن ينام مع نيوت أو مع فريدي وبارت. نعم، ان الأريكة المفتوحة تلك تتسع لثلاثة، ثم... ثم إنهم اعتادوا النوم مع بعضهم البعض، أليس كذلك أيها الغلمان؟ على كل حال، أين ستنام...»

لقد اخطأت بقولها هذا، كان عليها أن لا تأتي مطلقاً على ذكر أنه قد ينام في مكان آخر. فقالت: «إن سريرنا هو لأجلنا.» ولتجعل كلامها يبدو طبيعياً، ابتسمت بهدوء وهي ترفع نظرها إليه.

كان متسمّراً في مكانه لا تبدو الحياة سوى في عينيه. كانتا تتألقان بمشاعر جمة. ثم أغمضهما وهو يتنفس

بعمق. عندما فتحهما مرة أخرى، لم يكن فيهما شيء، لا شيء على الاطلاق. فصعقت وكأنه صفعها.

«ليون.»

استدار وخرج من المنزل. لم يسرع. لم يتعجل في سيره. لقد نقل قدميه فقط واستدار ثم خرج. نظرت إليه مغادراً، ثم سمعت صوت الباب يغلق خلفه، ومن ثم كانت تحدق في اللا شيء. استمعت إلى صوت وقع خطواته وهو يجتاز شرفة الباب الأمامي، ثم تلاشت تلك أيضاً عندما وطأ الرمال. لقد تركها، تركهم. توقعت أن تسمع صوت الشاحنة تتحرك، وركضت في أثره وقد تملكها رعب هائل. أخذت تحدق في الظلام فرأت الشاحنة، الى ان سمعت حركة من الجانب الآخر، فاستدارت لتجده يسير نحو مخزن الغلال.

شعرت بالارتياح، فهو لن يغادر المكان. بل كان يهجرها هي وليس المزرعة. ليس بإمكانها أن تدعه يفعل ذلك. كلا، لا يمكن. أخذت تركض خلفه، ووقع قدميها يماثل خفقان قلبها عنفاً. لكنه إذا كان سمعها، لم يبد ما يشير إلى ذلك. لقد بقي فقط يسير كرجل ليس لديه وجهة خاصة، أو شيء يتركه وراءه. وصلت إلى جانبه قائلة: «ليون.»

لا جواب.

«ليون.»

وصل إلى المخزن ففتح الباب ودخل ثم أغلقه خلفه. ففتحت الباب ودخلت هي أيضاً.

كان واقفاً وسط الأرض الاسمنت، كانت نظيفة مثل مطبخ والدتها، وكان هذا امراً يحيرها دوماً بنظافته ونظامه. كان ليون واضعاً يديه على وركيه وقد حنى رأسه.

همست: «ليون... أرجوك.»

رفع رأسه قائلاً: «إياك... إياك حتى أن تحاولي. لماذا تضيعين وقتك؟ فأنا لن أصدقك على كل حال. وكيف أستطيع ذلك؟»

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تهمس: «إنني لم أكذب عليك. إنني فقط لم أخبرك... بكل شيء.»

ضحك دون بهجة، وقال: «كلا أيتها السيدة. من المؤكد أنك تركت الكثير. دعينا نرى، هناك نيوت، آه نعم، إنك ذكرته. لا بأس. ولكنني لا أتذكر إنك قلت إنه كان يتوقع أن يعيش معنا. ثم بعد ذلك لم تقولي حتى إن هنالك آخرين. كم عددهم، على كل حال، يا كاسي؟»

استدار إليها وأخذ يعدهم على أصابعه.

«نيوت، بارت، فريدي، وطبعاً التوأمان إنهم خمسة. هل نسيت أحداً؟ آه، بيتي الصغير ذلك كنت أعلم عنه. لكنهم... إنهم خمسة آخرون. فإذا كنت سأقبل بواحد، فما الذي يجعلني أقبل بخمسة؟» كان الآن يصرخ: «ما الذي كنت ستقومين به، يا كاسي؟ تسربينهم واحداً كل فترة؟ فتحضري كل واحد منهم لزيارة قصيرة لا تنتهي أبداً؟ ألم تفكري في أنني سألاحظ هذا؟»

لم تقل شيئاً، وماذا عساها أن تقول؟ لم يكن يتوقع منها جواباً على كل حال.

عاد يقول: «هذا ما كنت تقومين به طوال الوقت. توسعين المكان لهم، أليس كذلك؟ إنك لم تكوني تؤسسين منزلاً لنا، بل كنت تؤسسين بيتاً لهم هم.»

فهمست متوسلة: «ليون. إنهم أخوتي.»

«وأنت وعدتهم ببيت، أليس كذلك؟ أليس كذلك يا كاسي؟»

أحنت رأسها: «نعم.»

«وأنت جئت إلى تكساس لهذا الغرض، أليس كذلك؟»

لم تنطق بشيء، وماذا تقول؟

«إنك حقيرة كاذبة مخادعة... محتالة. إنك لست كما كنت أظنك، يا كاسي. هنالك كلمة تطلق على المرأة التي تبيع نفسها لتنال ما تريد، يا كاسي، كلمة إذا أنا نطقت بها أمام والدتي فسأتلقى صفعة منها. وهذه الكلمة تناسبك.»

لكنه لم يلفظ الكلمة تلك، وكانت شاكرة له ذلك وهي تكبح دموعها.

سكت بعد ذلك طويلاً، إلى حد أخذت معه تتمالك نفسها وتفكر في كل ما عليها أن تقول، استجمعت شجاعتها، قائلة: «إنني آسفة، يا ليون. كان عليّ أن أخبرك منذ البداية، لكنني كنت أخاف من أنك لن تستجيب إليّ إذا أنا فعلت ذلك.»

قال معاتباً: «وهكذا فضلت أن لا تقولي شيئاً.»

عادت تقول: «كنت خائفة.»

«خائفة من أن تفقدي طعامك؟»

«خائفة من أن لا تمنحني، تمنحنا، فرصة نجرب فيها حظنا.»

قال بخشونة: «أخبريني يا كاسي. في ذلك النهار، يوم ذهبنا لنحضر رخصة الزواج، كنت مستعدة لأي شيء لو أنني وافقت، أليس كذلك؟»

كانت تعلم أن جواب هذا السؤال كان بالغ الأهمية بالنسبة إليه، لكنها لم تعلم السبب تماماً. ولما يهمها ذلك

فقد كانت قد اعترفت بكذبها على كل حال. أخيراً رفعت إليه بصرها قائلة: «نعم.»

«وحتى قبل ذلك. لو كنت ضغطت عليك، كنت ستعطيني ما أريد، أليس كذلك؟»

أخذت تفكر في ذلك. وكيف أن نظرة واحدة منها إليه كانت تحملها على الارتجاف شوقاً، أحياناً. همست مرة أخرى: «نعم.»

نظر إليها بعينين حادتين: «كنت مستعدة للقيام بأي شيء في سبيل أولئك الغلمان، أليس كذلك؟ أي شيء.»

لم تفكر وهي تقول، رغم صوت خفي كان يحذرها من أنها تدمر نفسها: «نعم، هذا صحيح ولكنك لا تعرف كم كانت أمورهم سيئة في منزل والدي. كان بإمكاني توفير بعض الحماية لهم قبل مجيء مارلين، ولكن بعد أن تزوجت من والدي، خرج الأمر من يدي تماماً. لم تكن مارلين تريدهم في المنزل، وكان كل ما تريده مارلين، تحصل عليه. لم يكن والدي يهتم بوجود الأولاد أو عدمه، بعكس مارلين. فبدأت تضربهم وتتعس حياتهم، وأنت سمعت ما فعلته بنظارات بارت. لقد سرقتها وأحدثت مشكلة وذلك لكي يرسلونه إلى الميتم. وبذلك نفقده إلى الأبد. هذا ما كان سيحدث. فبدوني كانوا جميعاً سيؤخذون إلى المياتم الخيرية.»

تمتم يقول ما جعل غضبها يثور للمرة الأولى: «ربما كان ذلك هو الأفضل.»

سألته: «كيف تقول مثل هذا؟ إن لديك أخاً أصغر، فماذا سيكون عليه شعورك لو أن أحداً أخذه منك؟»

رد عليها بحدة: «شقيقي الأصغر بعمرك تقريباً.»

«وما الفرق؟ افترض أنه بعمر بارت؟ أو فريدي؟» -

«لقد اهتم به أهلي عندما كان صغيراً.»

«حسناً، أهلي أنا لم يفعلوا ذلك. والدتي ماتت ووالدي لا يهتم مثقال ذرة. وهكذا ترك الأمر لي، لكنني لم أعرف ما عليّ أن أفعل. كان عليّ أن أخرجهم من بيت والدي وأؤسس لهم بيتاً يعيشون فيه.»

زمجر قائلاً: «وهكذا تزوجتني؟ إنك كنت ستفعلين أي شيء لأجلهم... أي شيء، حتى الزواج مني... حتى تسليمي نفسك... حتى التظاهر بأنك...»

صرخت: «إنني لم أتظاهر بشيء ابداً.»

تقدم منها خطوة وهو يقول: «أبداً؟»

تسمّرت في مكانها وهي تهز رأسها قائلة: «أبداً.»

حدق فيها طويلاً، ثم حول نظراته عنها: «لا أصدقك.»

شعرت وكأن الأرض مادت بها. فقالت بصوت خافت: «بل عليك أن تصدقني.»

فهز رأسه: «علي أن أصدقك؟ كلا، لا أستطيع أن أصدقك. لقد استغللتني، يا كاسي. لقد جعلتني أظنك تحبينني.»

«ولقد أحببتك يا ليون. إنني أحبك.»

«آه، حسناً. لقد جئت إلى هنا من بلدك بحثاً عن الحب، إذن.»

ازدردت ريقها قائلة: «ليس تماماً.»

قال بحدة: «الحقيقة هي ليس تماماً. فقد كنت تخططين لهذا طوال الوقت، أليس كذلك؟ وذلك منذ اللحظة التي رأيت فيها إعلاني ذاك في تلك المجلة.»

«كلا، وأقسم على ذلك. حتى إنني لم أر ذلك الاعلان. دودي هي التي رأته وأخبرتني عنه. لكنني تصورتك رجلاً معتوهاً ذا شعر طويل ولحية نابتة، أو ربما عجوزاً، إنها هي التي كتبت إليك أولاً. وفقط عندما أجبتها أنت إلى رسالتها، أخذت أنا أفكر في أنك قد لا تكون ذلك الرجل المتوحش الذي يعيش في قرن آخر.»

«ولكنك تصورت أنني كنت من اليأس بحيث أقبل بإعالة نصف دزينة من الأولاد.»

«كلا. لم تكن هناك قضية الأولاد أبداً، في ذلك الحين. إنك بدوت شخصاً لطيفاً فقط. لقد أحببت طريقتك في الكتابة. لذا فكرت في أن نتراسل، وهذا كل شيء.»

«ألم تفكري في ذلك الحين، في القدوم إلى تكساس؟»

بدا هذا سؤالاً غريباً، لكنها أجابت عليه بالصدق كبقية الأسئلة: «كلا بالطبع. وكيف كان بإمكاني القدوم إلى هنا؟ لم يكن لدي النقود التي تمكنني فعل ذلك، كما أنك لم تكن دعوتني بعد.»

«ولكنني عندما دعوتك، قفزت لاغتنام الفرصة، أليس كذلك؟»

«إنك تعلم بأنني لم أفعل ذلك. خصوصاً في البداية، لكنني أخذت أفكر في أنني أصبحت أعرفك إلى حد يمكننا فيه أن نجرب حظنا معاً.»

«ثم أخذ والدك تشينتز يسيء معاملتكم جميعاً لأن مارلين أرادت طردكم من البيت، أليس كذلك؟»

أخذت تلهث، كانت خائفة ولكنها لم تكن تعلم مكمن الخطر: «كان والدي يسيء معاملتنا على الدوام. لكن بعد أن

دعوتني أنت مباشرة، أخبرني... حسناً، لقد طردني من المنزل أنا وابني.»

«وإخوتك؟»

تنفست بعمق: «إنه... إنه لم يهدد بطردهم بالضبط، لكنه... لكنه قال إن مارلين تريد أن تعيش حياة زوجية طبيعية.»

قال ليون: «معنى هذا أنه لم يكن يريدهم.»

ردّدت قوله بحزن: «نعم. معنى هذا أنه لم يكن يريدهم.»

طوّح يديه في الهواء، قائلاً: «وهنا، كان ليون الأحمق. هنا في هذه العشرين ألف فدان في تكساس، كان يعيش وحده، ينتظر من يلتقطه.»

أغمضت عينيها: «حسناً، هذا بالضبط ما فكرت فيه في البداية. لقد جئت إلى هنا مصممة على أن أجعلك تتزوجني وبذلك أحصل على مكان أحضر إليه إخوتي. لكن بعد أن قابلتك... حسناً، لقد كنت أكثر كثيراً مما كنت أتوقع، ليس أبداً ذلك النوع من الرجال الذي يضع اعلاناً يبحث فيه عن زوجة. لقد أدركت ذلك على الفور. رأيتك رجلاً ممتازاً. رجلاً تفخر أية امرأة بأن تكون زوجة له، لكنك لم تعثر بعد على المرأة التي تعجبك. إذ بحياتك المنعزلة هنا، لم تجد فرصة تتعرف فيها إلى النساء. كما أنك، كما يبدو، لم تعثر على من تناسبك في المدينة. لقد أردت فقط أن أجرب حظي معك، يا ليون، فهل هذا أمر سيء؟ كنت أريد حظاً فقط... وبعد ذلك صرت أريدك أنت بالذات.»

لكن وجهه كان لا يعرف اللين أو الصفح، وطال به الصمت وهو يحدق فيها، ثم قال: «إن ما تعنينه هو أنك عند ذلك

رأيت أنني أريدك، ولكنك فقط لم تكوني واثقة من قوة اعجابي بك. آه، كلا. ليس أنا من يفعل ذلك. لقد كنت من الغباء بحيث لم أدرك أنه كان بإمكاني أن أنالك في أي وقت.»

«هذا غير صحيح.»

«غير صحيح؟ ألم تقولي منذ دقائق أنك كنت ستقبلين أن تمنحيني نفسك حتى قبل أن أطلب يدك للزواج؟»

ازدردت ريقها: «إنني لم أعن الأمر بهذا الشكل، لقد عنيت بقولي ذاك أنني كنت أحببتك من أول...»

«حتى ولو كنت بديناً أصلع وأشياء أقبح من ذلك، فأنت كنت ستقولين نفس الشيء.»

«هذا غير صحيح. كنت عند ذاك أعرض كل شيء أمامك كنت سأعقد معك صفقة تبادل.»

سألها: «لماذا لم تخبريني عند ذاك؟ لماذا فقط لم تخبريني عن بقيتهم عندما أخبرتني عن ابنك؟»

قالت بقنوط: «كنت خائفة.»

«خائفة من أنني لم أكن أحبك بما فيه الكفاية لكي أقبل بشيء بسيط مثل اطعام خمسة أفواه أخرى.»

فهتفت: «نعم. كنت خائفة من أنك لم تكن تحبني بما يكفي.»

قال بهدوء: «حسناً، ولكنني كنت أحبك فعلاً. كانت رغبتي فيك بالغة بحيث خشيت من أن أفسد بذلك روعة حبي لك. كنت أريد أن أكون مستقيماً معك، يا كاسي، ولهذا فضلت الانتظار.»

«وكذلك أنا. فهكذا كان شعوري بالضبط.»

«بل أنت لم تكوني تتطلعين إلى الحب معي، يا كاسي. إنما كنت تتطلعين إلى بطاقة إعاشة لستة غلمان. حتى ولو كان العريس مجرماً، كنت مع ذلك ستتزوجينه لذلك الغرض.»

قالت والدموع تنهمر من عينيها: «ولكنه كان أنت يا ليون. كان أنت.»

قال بمرارة: «هذا صحيح. كان أنا. ربما أنت لم تأتِ طالبة الحب، يا كاسي، ولكنني أنا كنت كذلك، وهذه هي المشكلة.»

«كلا، هذا غير صحيح. إعني نعم. فأنا لم أحضر إلى هنا لأجل الحب، ولكن...»

قال بكآبة: «إنك وجدت ما كنت تنشدينه، يا كاسي. وجدت رجلاً ضعيفاً ذا عينين متألقتين كالنجوم. أما أنا فقد وجدت امرأة زائفة.»

«كلا.»

«كلا؟ لماذا لم تخبريني بالحقيقة إذن؟»

أرادت أن تصرخ بأنها كانت خائفة، ولكن ماذا يفيد ذلك؟ لقد حاولت أن تفسر له هذا منذ دقائق. ولم تعرف ماذا تقول بعد، كيف تقنعه بأن ما كان بينهما كان حقيقة وليس زيفاً. لو تتمكن فقط من إمساكه، لمسه، لكن عندما اقتربت منه خطوة، قفز متراجعاً إلى الخلف وهو يقول متعباً: «أتركيني وشأني يا كاسي. أتركيني وشأني.»

كان حول عينيه ظلال. بدا وكأنه على وشك أن ينام واقفاً على قدميه. ربما نوم ليلة سيكون فيه فائدة لهما الاثنين.

سألته برقة: «أين ستنام؟»

انتفض رافعاً رأسه: «هنا.»

«في المخزن؟»

«لقد سبق ونمت في أمكنة أسوأ.»

«أرجوك يا ليون... تعال معي إلى المنزل.»

اومأ برأسه قائلاً: «البيت لا يتسع لنا جميعاً.»

«هذا لا يهم. يمكننا تدبير أمرنا.»

اجاب: «لا أريد أن أتدبر الأمر، يا كاسي. أريد فقط أن تتركوني وحدي.»

فهمست: «ليون... أرجوك.»

أدار لها ظهره. ووقفت هي فترة محاولة أن تجد طريقة فعالة في التوسل، لكن لم يعد هناك ما يقال، وقد وقع الضرر. في النهاية، فعلت ما طلبه منها وتركته وحده.

عندما صعدت إلى شرفة المنزل الأمامية، ظهر نيوت من بين الظلال، وهمس: «كاسي، ألن يدخل المنزل؟»

اومأت برأسها وهي تبكي بصمت، فتأوّه نيوت قائلاً: «لقد أفسدنا الأمور بينكما، أليس كذلك؟»

حاولت أن تبسط أسارير وجهها وهي تقول: «سيكون الأمر على ما يرام.»

«إنني آسف، يا أختاه. إنني فقط لم أعرف ما ينبغي علي أن أقوم به.»

أخذت تربت على رأسه، مدركة مبلغ طوله الذي لم تلحظه من قبل، وقالت: «ستصلح الأمور.»

«أرجو ذلك. إنه لم يكن يتوقع قدومنا، أليس كذلك؟ أعني، ألم يكن يعلم؟»

اومأت برأسها بأسف، وفجأة، لم تعد تستطيع تمالك نفسها، فأدارت رأسها وأجهشت بالبكاء: «الذنب ذنبي أنا. لم أستطع أن أخبره. كنت خائفة من اخباره.»

وضع يديه على كتفيها، وأدركت هذه اللحظة مقدار ما أصبح عليه من رجولة الآن، ثم همس يسألها بخشونة: «هل تخافين منه؟ هل يؤذيك؟»

اجابت وهي تجفف دموعها: «كلا، ليس الأمر بهذا الشكل. إن ليون ليس مثل والدي، فهو لا يمكن أن يضربني أبداً. الأمر هو فقط... آه، كم افسدت الأمور، يا نيوت. لو انني فقط كنت أخبرته عن الأولاد الآخرين. إنني أعلم الآن أنه كان عليّ أن أخبره. لكنني كنت خائفة للغاية من أن لا يصدق أنني كنت أريده هو. لكنه لا يصدق ذلك الآن على كل حال.»

أخفض نيوت يديه على جانبيه وهو يقول بنفس اللهجة التي ينهر بها كول بأن يقفل فمه، أو كيلر بأن يسكت، ما جعلها تبتسم وجعل دموعها تعود إلى مقلتيها، قال: «كاسي، وجودك هنا لا معنى له.»

فهمست: «لا أستطيع تجنب ذلك. فهو رائع، يا نيوت. إنه رائع مثل جوزيف.»

أخذ نيوت يصفّر برقة: «إنك إذن تحبينه، أليس كذلك؟»

ضحكت من خلال دموعها: «يمكنك أن تقول ذلك.»

قال: «حسناً، وما هي المشكلة إذن؟ إنه سيأتي لمصالحتك. أليس كذلك؟ هكذا كان جوزيف.»

قالت: «ربما، ربما لو كان جوزيف لفعل ذلك. ولكن جوزيف كان يعلم أنني أحبه، يا نيوت. لم يكن عليه أن يتساءل عن سبب زواجي منه.»

قال نيوت بلهجة واقعية: «طبعاً لم يكن ليتساءل، فكل إنسان كان يعلم أنك تزوجته للخلاص من والدك.»

شهقت قائلة: «كلا، ليس الأمر كذلك.»

لكن هذا كان صحيحاً. ويبدو أنها كانت تتزوج أي شخص لسبب خاطىء على الدوام. لكن الأمر نجح مع جوزيف. وكان بالامكان أن ينجح مع ليون، إذا شاء.

قالت لنيوت: «إياك أن تهتم بذلك. كان عليك أن تكون نائماً الآن.»

لوى شفتيه قائلاً: «إن أرض المطبخ قاسية جداً، يا كاسي.»

«حسناً، لا بد أنها كذلك. سنكوم عليها بعض الأغطية.»

«لم أجد أية أغطية باقية.»

قالت: «إذن نضع مناشف. إن لدينا مناشف جيدة يا نيوت. وهناك أكياس للنوم وبهذا تمر هذه الليلة. وغداً سأجعل أحد الصغار ينام عليها، وتأخذ أنت مكانه.»

قال: «يمكنني أن أنام هنا على الشرفة. فأنا أحب النوم تحت النجوم.» مال على حاجز الشرفة ينظر إلى السماء.

فعلت كاسي مثله ثم قالت: «إنني أعلم ما الذي تعنيه. إن السماء جميلة، هنا وكان ليون يحدثني عنها في رسائله. لكن المرء لا يلمس جمالها إلا أذا رآها. إنها مرصعة... بالماس.»

قال: «نعم، الماس... إلى الابد نعم، إنها رائعة كم أتمنى لو أجمعها بيدي... لكن لا سبيل إلى وصف روعتها على الورق. قد يلزم لذلك الدهان والحبر، لكن هذا فوق مقدرتي على رسمها.»

قالت بشغف: «آه، يا شقيقي الفنان الحبيب، كم أنا مسرورة لوجودك هنا.»

قال: «هذا المكان هو الأصح،يا كاسي. إنني أشعر بذلك في أعماقي.»

همست: «لقد فكرت في هذا، أنا أيضاً. فقط لو أن...»

سكتت فتابع يقول: «إنني شديد الأسف لما سببناه من ازعاج. لقد حدث كل شيء دفعة واحدة.»

قالت: «إنني أعرف الآن، على الأقل، انكم جميعاً بخير.» أغمضت عينيها لا تريد أن تفكر في ما سيفعلونه أو إلى أين سيذهبون لو أن ليون طردهم. ثم عادت تقول في نفسها أكثر مما تقوله لهذا الغلام الذي يتقدم في طور الرجولة بسرعة، عادت تقول: «ستصلح الأمور... ستصلح.»

لا بد من ذلك.

الفصل السابع

ألقى ليون البطانية فوق المقعد عند البوابة، ثم ألقى بنفسه على أكياس القش. كان الألم الذي يشعر به كما لم يعرفه من قبل، ولو استمر هذا الجرح في أعماقه، فهو سيتعب حتماً إلا إذا تمالك نفسه.

لقد كذبت عليه، ومهما كان ما قالته الآن، فهو لا يغير من الأمر شيئاً. كل ما قالاه تلك الليلة بعد وصول الأولاد كان من الصعب التغلب عليه. الأشياء التي قالها لها! لم تفعل هي سوى الوقوف والاستماع إليه. لكن ماذا بإمكانها أن تفعل سوى ذلك؟ فالحق كان معه. لقد كذبت وخططت في الخفاء، جاعلة منه أسوأ نوع من المغفلين. ومهما حاول، فهو لن يجد طريقة يخرج بها من هذه الفوضى التي هي زواجه.

بإمكانه أن يطلقها، بكل تأكيد حتى انه قد يحصل على قرار بفسخ الزواج. لكن إلى أين ستذهب؟ وماذا ستفعل؟ هذا كان السبب في أنه، رغم كل شيء، شحن الأولاد جميعاً وأحضرهم إلى مزرعته بارادايس. ما الذي كان يمكنه غير ذلك؟ لا يمكنها أن تأمل في أن يعيلها هي وستة معها... ستة... غلمان هنا! إن فان هورن مدينة صغيرة ليس فيها الكثير من الأعمال. والموجود منها لا يدفعون لها أجراً فوق الحد الأدنى. نفس الشيء هناك في وست فيرجينيا، أو لعله أسوأ، وإلا لما اختارت هذا الطريق اليائس. لقد فكر في أن يأخذها والأولاد إلى مدينة الباسو ويدفع لهم أجر منزل

لعدة شهور. فحظها في أن تجد عملاً سيكون أفضل هناك. لكنها لن تحصل إلا على الحد الأدنى من الأجر. مع ذلك، فقد يريحهم ذلك لفترة، هذا إلى قدرتها على الاقتصاد. ذلك أن كاسي، على كل حال، ما هي إلا فتاة جبلية غير معتادة على طرق حياة المدينة. وستكون سهلة التعامل مع أيّ مزاحم لبق حلو الابتسامة يعترض طريقها.

حدث نفسه بأنه لا ينبغي أن يعتبرها مشكلة بالنسبة إليه. وأنها لا تستحق منه أي اهتمام بعد أن استغلّته بهذا الشكل، لكنه لا يستطيع أن يجد طريقة يتركها فيها مع أولئك الغلمان ثم يعيش مرتاح الضمير. ليس الآن على كل حال. طمأن نفسه بأن بإمكانه أن يجد مخرجاً له من هذه المشكلة، مع مرور الوقت وأثناء ذلك، سينام في مخزنه هذا، وسيعيش منعزلاً عن أولئك القاطنين في بيته، وذلك قدر إمكانه.

لقد كان يعتقد بأنها تحبه. لقد أراد أن يعتقد بأنها تحبه، كان سيستمر في ذلك لو لم يحضر الغلمان بذلك الشكل المفاجيء ويكشفوا عن كل شيء بقولهم: (لقد جعلته يتزوجك، كما كنت قلت بالضبط. وقد وعدتنا بأنه بإمكاننا أن نأتي لنعيش معك). كانت هذه الكلمات تتردد في ذهنه مرة بعد مرة. (إنك جعلته يتزوجك... إنك جعلته يتزوجك...) تنهد، متمنياً أن يتمكن من النوم ثم يستيقظ في الصباح ليجد أن كل ذلك لم يكن سوى حلم سيء. (إنك وعدت... إنك وعدت... إنك وعدت...) وهمس برقة، (لقد وعدتني بأن تحبيني وتحترميني) ثم تملكه الألم، آه، ما أفظع أن يعلم أن كل ذلك كان مجرد كذب.

لقد كانت كفؤاً للغاية، أيضاً وكذلك مقنعة. حاول أن لا

يفكر في تلك الأوقات التي أمضياها معاً. حاول أن لا يتذكر ضحكاتهما معاً. لم يشأ أن يستعيد ذكريات العشاء على ضوء الشموع، حتى هذا المخزن كان يحمل ذكريات حلوة مرة، فهو لا يستطيع إلا أن يتصورها على صهوة حصانها وحدها في المزرعة. لقد اعتاد أن يحلم دوماً، أثناء عمله نهاراً، بالعودة إليها لكي تمسح عنه أعباء النهار وتنير لياليه، لقد اعتاد على حبها في هذه الفترة القصيرة وذلك بشكل لم يبدُ أنه سيتوقف، لكنه الآن يريد أن يتوقف عن حبها، أكثر من أي شيء آخر، لو أنه فقط يتمكن من التوقف عن حبها، إذن، لتوقف عن التألم والرغبة في ما ليس بإمكانه أن يحصل عليه.

ليس ذلك لأنها سترفضه، فقد كانت راغبة في الاستمرار كالسابق، أو هذا ما كانت قالته. حتى انها قالت إنها مغرمة به، لكن ليس بإمكانه أن يصدقها الآن؟ الأغلب هو أنها تشعر بعرفان الجميل نحوه لعدم تركه لها ولأولئك الأولاد وسط ذلك الطريق الترابي، لكن عرفان الجميل ليس ما يريده منها. فالتزلف والتذلل والعواطف الزائفة، كل ذلك هو البديل الآن لما يريده منها، هذا ما لا يقبله حتى ولو كانت قادرة على تفهم ذلك، فهو ببساطة، لا يمكنه العيش مع حب زائف. لا يمكنه العيش مع الندم وتبادل الاتهامات كما رآه فيها الآن. فالشعور بالذنب لا يصلح أساساً للزواج، ومع ذلك، لا يبدو ان بإمكانه أن يدعها تذهب. ولا أن يتمكن من العيش مع هذه الآلام، لكنه يتحمل هذا الآن، وبجهد خارق. لا يهم كم استطاع النوم، فقد استيقظ في الصباح شاعراً بالإرهاق واستنزاف القوى.

عند المساء فُتح الباب على اتساعه. لا شك أنه احد الغلمان. ذلك أن كاسي اعتادت أن تفتح الباب إلى الحد الذي يمكنها الدخول منه. تنهد كان متعباً بحيث لم يكن يستطيع النهوض والتشاغل. أطل نيوت برأسه قائلاً: «مرحباً، يا سيد بارادايس.»

«نيوت.»

فلم يستطع الفتى أن ينظر في عينيه، واستند إلى البوابة، قائلاً: «إن كاسي تريد أن تعلم ما إذا كنت ستحضر إلى المنزل لتناول العشاء هذه الليلة، قالت بأن أخبرك بأنها ستعد فاصوليا حمراء وسمكاً مقلياً متبلاً بالبصل والفلفل الأحمر.»

جاء الاعتذار إلى شفتيه بشكل آلي: «إنني من التعب بحيث لن أتمكن من أن أجهز نفسي لتناول الطعام في المنزل هذه الليلة، سأفتح بعض المعلبات هنا وأنام.»

أومأ نيوت برأسه، لكنه لم يبد استعداداً للذهاب: «إن لديّ ما أقوله يا سيد بارادايس لقد أخذت كاسي تعلمني ركوب الخيل عند الصباح بعد ذهابك. إنني أظن ربما بإمكاني الذهاب معك وبذلك اكتسب قوتي. وهذا بالتأكيد يجعلني راضياً عن نفسي، يا سيد بارادايس وقد يمكنني بذلك تقديم شيء من العون إليك. ليس في البداية، بالطبع، ولكن في أقرب وقت كما أتصور... هذا إذا سمحت لي بالذهاب معك.»

إنه إذن يتعلم ركوب الخيل؟ وتذكر ليون الأمسيات التي أمضاها في تعليم كاسي ركوب الخيل. أبعد تلك الأفكار عن ذهنه... ومعها نيوت بقوله: «الأفضل أن تبقى هنا الآن لتساعد أختك.»

«لكن ليس هناك ما أقوم به لأجلها، يا سيد باراديس، فليس هنا ما يعمله الرجل. هذا إلى أن الأمور كئيبة للغاية، يا سيد باراديس حتى إن فريدي لم يعد يضحك أو يمرح كعادته، وبارت لا يفعل سوى حشر أنفه في مجلاتك تلك يكاد يلصق عينيه بالصفحة ليرى الكلمات، دون أن يعرف نصفها ما جعل كاسي تطلب من التوأمين إخراجها من القاموس لأجله. كم يسبب الضجر مشاجراتهما على من يفعل ذلك. هذا إلى أنه لم يحدث أن فتح الواحد منهما كتاباً من قبل، فكل ما يتصورانه عن الكتب هو أنها جُعلت ليضرب الواحد منهما الآخر بها.»

تمتم ليون يقول وقد تملكه الفضول بالرغم منه: «إن عليهما أن يذهبا إلى المدرسة، أليس كذلك؟»

قال نيوت عابساً: «حسناً، إنهما لم يذهبا كثيراً السنة الماضية، فقد فقد كيلر حذاءه في المستنقع، وهكذا كان عليهما أن يشتركا بانتعال حذاء كول. وقد ظن والدي أن هذا سيعلمهما درساً. لكنني أحسب أنهما كانا مسرورين بقضاء النهار في الجبال أو على مقاعد الحدائق العامة.»

هز ليون رأسه: «يدهشني أن تتركهما كاسي يستمران في هذا التصرف.»

فكر نيوت لحظة، ثم قال: «أظن هذين الغلامين بحاجة إلى يد قوية لرجل ما. كان بإمكان جوزيف أن يفعل ذلك. وكذلك والدي لو شاء ذلك ولا شك أن بإمكانك أنت ذلك.»

هل كان في هذا الكلام نوع من التحدي؟ رفع ليون بصره، ثم عاد يخفضه وهو يقول: «ليس لديّ وقت أضيّعه على ولدين.»

قال نيوت برجاء: «ربما إذا سمحت لي بالخروج معك.»

فتح ليون فمه ليخبره بأن ينسى هذا الأمر، ثم عاد فأطبقه. ماذا يضر فيما لو أخذه معه؟ من الممكن أن لا يحتمل ذلك أكثر من نهار واحد، على كل حال. فتعلم الركوب حول المنزل هو شيء مختلف تماماً عن اعتلاء السرج ساعات طويلة، حيث يتنقل على الأراضي الوعرة، دافعاً الحيوانات الغبية ذوات القرون الحادة. هذا إلى أن الأسيجة الممتدة نحو الشمال بحاجة إلى إصلاح، وهذا عمل لا بد له من رجلين معاً فمال ليون إلى الأمام، ومرفقاه على ركبتيه، ثم أومأ ايجاباً فامتلأ نيوت سروراً.

قال ليون ببطء: «والآن، إلزم مكانك، فأنت لم تسمع شروطي بعد.»

قال نيوت: «أي شيء تقوله، يا سيد باراديس وبأي طريقة تريدها.»

نظر ليون إليه ببرودة، ثم قال: «ستسرج حصانك وتستعد للركوب قبل الفجر. ثم تحضر غداءك معك، وإلا فلن تأكل. وماءك وإلا فلن تشرب...»

«نعم، يا سيدي.»

تابع ليون يقول: «ليس هذا كل شيء، إنك ستحتاج إلى قفازات للعمل وتلبس شيئاً سميكاً فوق كاحليك، وزوج واحد من الجوارب لا يكفي. ستقوم بكل ما أطلبه منك دون أسئلة حمقاء. هل فهمت هذا؟»

«نعم يا سيدي، يا سيد باراديس.»

«حسناً، إذن إنك ستكون بحاجة إلى قميص طويل الكمين بياقة يمكنك أن تقلبها إلى أعلى، ثم إلى قبعة.»

«فهمت.»

استند ليون إلى الخلف: «إذا لم تكن مستعداً للركوب في نفس الوقت الذي أكون أنا فيه جاهزاً، فستبقى في المنزل.»

«سأكون مستعداً، يا سيدي بارادايس فاعتمد عليّ.»

«سنرى، والآن اخرج من هنا لكي أظفر ببعض النوم.»

تركه الفتى مطيعاً، وفك ليون حزامه وقد نسي عشاءه، خلع حذاءه ثم ارتمى على فراشه المؤلف من بطانية وكيس تبن، لم يكن يهمه نوع المنامة إذا هو استطاع النوم جيداً.

مع ذلك بدا النزول من فوق الكيس، في الصباح، غاية في الصعوبة. نزل إلى الأرض وهو يسعل ثم انتعل حذاءه، كان قد نام بثيابه خوفاً من برد الليل.

افتقد إفطار كاسي، لكنه حاول أن لا يفكر في ذلك وهو يسير نحو الموقد المتنقل في زاوية المخزن حيث وضع بعض القهوة في الابريق ليغلي. ثم خرج إلى الصحراء ليريح عضلاته، مفكراً في انه من الحماقة أن يستمر في العيش بهذا الشكل بينما بإمكانه أن يستعمل المنزل في أي وقت، لكن رغم صعوبة ما يعانيه هنا، فهو أسهل كثيراً من جرح كبريائه. إنه يريد أن يبقى بعيداً عن كاسي، فهو لن يستطيع احتمال نظرة الأسف والأسى التي ترمقه بها، الفضول في أعين أولئك الغلمان يبعث الضيق في نفسه. لماذا إذن ترك نيوت يلحق به هذا النهار؟ تجاهل هذا السؤال وهو يتجه نحو طاحونة الهواء ليغسل يديه ووجهه.

عندما عاد إلى ناحية المخزن، انتبه إلى شيء من الفوضى في المنطقة الشرقية من ساحة الماشية، لا شك أن

نيوت يحاول امتطاء أحد الجياد. فكر ليون في تقديم يد المساعدة له، لكنه عاد فقرر عدم القيام بذلك. إنه لن يسقط في فخ تمثيل دور الوالد لأحد أخوة كاسي، دخل المخزن حيث سكب لنفسه شيئاً من القهوة أخذ يرشفها أثناء حزمه بعض علب السردين والبازلاء واللحم وذلك مع بعض البسكويت والتفاح، لم تكن هذه وجبة شهية للغاية، لكنها كانت معقولة وسهلة التناول. غداً سيذهب إلى القبو وذلك عندما يتأكد من عدم وجود كاسي لكي لا تلحق به لتعاود الاعتذار، لم يكن يستطيع سماع المزيد من اعتذاراتها. هناك طرق كثيرة تعتذر فيها المرأة عن عدم حبها لرجل يكن لها بالغ الاعجاب.

سكب لنفسه المزيد من القهوة، ثم أخذ يتناول فطوره أثناء اسراجه لجواده. ثم سرح شعره بأصابعه، ليقود بعد ذلك الجواد إلى حيث يستقبل الصباح. كان الظلام لا يسمح بسوى أول خيوط الفجر عند الأفق. لم يلمح أثراً لنيوت، فساوره شعور بالغ الضآلة بخيبة الأمل، ثم ما لبث أن هز رأسه، أتراه من الشعور بالوحدة بحيث يرحب برفقة مراهق مزعج كذلك الفتى؟

نبذ هذه الخواطر وهو يضع قدمه في الركاب، ثم يقفز فوق سرج الحصان، مسوياً من جلسته وهو يتناول اللجام. انتبه إلى حركة قريبة منه، فغمغم يقول: «أظننا، أخيراً سنظفر بمرافق.»

سار بحصانه نحو زاوية المرعى. كان نيوت بانتظاره هناك ممتطياً مهراً كانت كاسي تمتطيه أحياناً. كان خلفه ظلان لحصانين براكبيهما أيضاً، أول ما تبادر إلى ذهنه أن

كاسي قد جاءت هي أيضاً. تملكته للتو السعادة، لكنه سرعان ما رأى أحد التوأمين، ولعله كول يلكز بمهمازه أخاه الشاكي، وأدرك ليون من هو الذي يريد أن يأتي معه هذا الصباح.

أخيراً قال لهما: «ما الذي أتى بكما؟»

تدافعا بالقول في وقت واحد: «ما دام نيوت سيمكنه الذهاب فنحن أيضاً يمكننا ذلك.»

قال نيوت: «وقد تعلما الركوب هما أيضاً، يا سيد بارادايس.»

«يمكننا القيام بأيّ شيء، وسترى.»

«إنه ليس أكبر منا كثيراً.»

عاد نيوت يقول: «إنهما سيشغلان كاسي كثيراً هذان الاثنان، إذا ما مكثا في البيت كما أنها بالغة التوتر.»

كان آخر ما قاله نيوت هو الذي سمعه ليون، في الواقع، وأدرك على الفور صحة ذلك. فقد كان هذا الأخير قد حدثه عن أن هذين الغلامين يلزمهما يد قوية، كان قد سمع كاسي تصرخ بهما عدة مرات، إحداها كما يتذكر، لأنهما رشقا بارت بشيء ما لم يستطع هذا الأخير أن يراه متجهاً نحوه لكي يتفاداه. سرعان ما نبذ ليون فكرة راودته في أن يأخذ بارت إلى الباسو لشراء نظارات له. أخذ ينظر إلى هؤلاء الثلاثة الذين يواجهونه، ما الذي سيفعل بهم؟ بإمكانه أن يتحمل واحداً منهم، أما أن يأخذ الثلاثة فهذا منتهى الحماقة. لكن... ألا يمكن أن يلتهوا ببعضهم البعض، فيجنّبوه بذلك الازعاج؟ ثم قد يصادفون الحيّات فيخلصونه منهم. شعر بالاشمئزاز من نفسه وهو يرى نفسه خارجاً مع هؤلاء الثلاثة الذين يعتبرهم خارجين على القانون.

تنهد وهو يرفع بقبعته إلى الخلف ويتكىء على السرج بساعديه، قال: «لا بأس، الآن فاسمعوا، لأنني لن أقول هذا الشيء أكثر من مرة واحدة. إنكما ستفعلان ما تؤمران به منذ المرة الأولى، وإلا فستعودان إلى البيت حالاً. هل فهمتم؟»

«نعم يا سيدي.»

أجفلت الجياد الثلاثة، ثم صهلت وأخذت تقفز متوترة.

«كفى، اقفلوا أفواهكم من كل...» وأمسك عن التفوه بكلمات الغضب وهو يسيطر على جواده بسهولة. أما الثلاثة الآخرون، فقد وجدوا في ذلك بعض الانزعاج إنما ليس كثيراً. فقد كانت الجياد حسنة التدريب. سار ليون أمامهم وهو يأمرهم قائلاً: «اتبعوني، وحاولوا أن لا تدفعوا بمشاغباتكم الجياد إلى أن تقتل واحداً منكم.» سمعهم يشتكون بعضهم بعضاً وهم يتدافعون خلفه. فهزّ رأسه ثم تابع سيره دون النظر خلفه.

ذهبوا شرقاً، وكانت الشمس تشرق في قبة السماء، ثم استداروا شمالاً. كان الغلمان يتفاخر الواحد منهم إزاء الآخرين، هامسين بصوت مسموع. لكنه تجاهلهم متابعاً السير، وعندما وصل إلى نقطة معينة وقف وانتظر وصولهم إلى جانبه. لم يكن هناك سوى طريق واحد عبر هذا المكان، واحد نزولاً والآخر صعوداً، لكن طريقهم كان شديد الانحدار إلى درجة خطرة. استدار على سرجه، ثم سمّرهم كل واحد منهم بنظرة فولاذية، يا لهم من فرقة متنافرة المظهر.

كان نيوت يعتمر قبعة من اللباد لا شكل لها، من قبعاته هو القديمة، كان يظن ان كاسي قد ألقتها في القمامة، كذلك

القميص وبنطلون الجينز، واللذين كانا يمسك بهما حزام مقطوع. وحول كاحليه وقمة حذائه كانت تلتف شرائط خرق عرف ليون أنها من أحد أثواب كاسي القليلة التي تملكها، للحظة خاطفة، شعر بخيبة الأمل، ما لبث بعدها أن شعر بنوع من الارتياح الداخلي. لا بأس، فمهما كانت مساؤها، فهي على الأقل غير أنانية، كانت تمانع بكل جهدها في أن ينفق نقوده عليها، مدركاً الآن أنها إنما كانت تضع جانباً ثيابه القديمة هذه لأجل إخوتها. لقد قامت بكل شيء لأجل اخوتها، حتى الزواج منه وهي لم تتردد لحظة واحدة في التضحية بثوب قديم في سبيل أن يمثل نيوت والتوأمان دور رعاة البقر.

ثم نظر إلى التوأمين ولم يكد يصدق عينيه، واحد منهما كان يرتدي بنطلوناً صوفياً محاكاً باليد وقميصاً قطنياً تحت قميص قطني ممزق حائل اللون، وقلنسوة لعبة كرة البيسبول وفردة من حذاء لا بد أن ليون كان يملكه عندما كان في سنه، ثم كبرت قدمه فلم يعد يناسبه، أما أخوه فقد كان يرتدي فردة الحذاء الأخرى وكنزة ذات ياقة كبيرة فوق بنطلون كبير المقاس، وقبعة قش قديمة للغاية. كانت حول قدميهما الحافيتين شرائط من خرق مماثلة لتلك التي كانت حول كاحلي نيوت، تصور ليون أي شجار دار بينهما حول هذا الحذاء، والذي كان الحل الوحيد له هو حصول كل منهما على فردة. إنها كاسي... كاسي التي كانت تبذل جهدها بينهم، مضت لحظة... لحظة طويلة من الشعور بالخزي لم يستطع أن يتنفس فيها. أخيراً، لم يستطع إلا أن يحوّل نظراته بعيداً عنهم وهو يقول راجياً أن لا يكون أحد منهم قد

لاحظ تغيّر صوته: «سأذهب أنا أولاً، وستتبعونني واحداً واحداً. كل واحد خلف الثاني تماماً. والذي يتحوّل عن هذه الطريق الوعرة، يتعرض إلى السقوط عن جواده وكسر عنقه. إذن، فافعلوا ما أفعل أنا تماماً ولا أريد أن تتدافعوا لأجل الأمكنة، فهذه ليست لعبة.»

ثم تقدم إلى الأمام دون إلقاء نظرة أخرى على أيّ منهم، سائراً ببطء وتمهل، وسارت الأمور بشكل حسن، هبوطاً ثم صعوداً إلى أن أصبح فوق الحافة حيث تحوّل شمالاً وخلفه حصاناً بعد الآخر، كانوا يصعدون فوق مواطن أقدام صلبة وما أن تنفس بارتياح حتى سمع صرخة تبعها صوت ارتطام، فاستدار في الوقت المناسب ليرى أحد الجياد يقفز بواحد من الغلمان، ثم لا يلبث أن ينطلق راكضاً بأقصى سرعة، وقد سقط سرجه بجانب الغلام على الأرض.

تملكه رعب هائل، أتراه قتل واحداً من إخوة كاسي؟ كانت هذه الفكرة، من الهول، بحيث لم يستطع متابعتها. ترجل إلى الأرض، ولكنه ما لبث أن تنفس بارتياح بالغ وهو يرى الغلام يجلس متأوّها. انطلقت من بين شفتي ليون، عند ذلك، كلمات لا هي اسبانية ولا هي تناسب مسامع والدته، وقد أثار تلك الشتائم شيئان، الأول ارتياحه وهو يرى الغلام يتحرك، ثم رؤيته للسرج سليماً، لماذا... لماذا لم يتأكد من أن هذين الوغدين يعلمان ما يفعلان؟ سار نحو الغلام، شاعراً بالغضب من نفسه، ثم مد إليه يده، وإذا بالصبي يجفل، ثم ينقلب ليجلس القرفصاء ناظراً إليه بحذر: «إذا ضربتني، سأرد لك الضربة. أقسم على ذلك.»

يضربه؟ نظر ليون ذاهلاً إلى وجه الصبي الأنمش والذي

كان يظن أنه سيضربه عقاباً له على سقوطه عن الحصان. خطر في باله فجأة أن هذا بالضبط ما كانوا جميعاً يتوقعونه منه. استقام في وقفته وأخذ ينظر إليهم واحداً واحداً، مستوعباً وجوههم القلقة المتحفزة للدفاع وقبضاتهم المتكورة. إن مجرد معرفته أن شخصاً كان يضرب هؤلاء الغلمان لحادثة كهذه أو حتى أقل منها، حركت قلبه ومشاعره، وكبح مظاهر العطف وتصرف نحوهم بالطريقة الوحيدة التي يعرفها.

وقف ينظر إلى الغلام الحذر، ثم قال: «آخر مرة ضربت فيها صبياً، كانت عندما كنت أنا صبياً، وعندما أضرب رجلاً، ثق تماماً بأن ذلك ليس إلا نتيجة استفزاز بالغ منه.»

عندما ظهر الارتياح على الغلام، التفت إلى نيوت والتوأم الآخر، وقال: «إنزلا من على هذين الجوادين، فأنا أريد أن أتفحص أربطة السرجين كما كان عليّ أن أفعل منذ البداية.»

تبادلا النظرات، ثم نزلا إلى الأرض، تفقد أول سرج ثم الآخر، حيث أخذ يشد أربطة كل منهما وهو يشرح لهما كيف يجب أن تكون. ثم سأل: «هل هناك من سؤال؟» فهز الثلاثة رؤوسهم.

«حسناً، اصعدا ثم اذهبا لإحضار جواد... ما اسمك؟»

ألقى بهذا السؤال للغلام الذي سقط، فأجاب هذا: «كيلر.»

أشار إلى الغلامين الآخرين: «امتطيا جواديكما واذهبا لإحضار جواد كيلر، فهو لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيراً من هنا، قفا أمامه فقط، ثم لوحا بذراعيكما نحوه. عند ذلك سيستدير عائداً إلى هذا الاتجاه. فقوداه مباشرة إلى هنا وأنا سألقي عليه أنشوطة.»

كانا قد استويا على سرجيهما، فتابع يقول: «لا تغامرا بأي عمل. فإذا لم تجداه، عودا إلى هنا، هل سمعتما؟»

نادى نيوت قائلاً: «نعم يا سيدي.» ثم همز جواده منطلقاً في الطريق التي كان ذهب فيها الجواد الهارب.

صاح ليون خلفهما: «ولا تجتازا المكان الذي جئنا منه مرة أخرى.» فلوحا بذراعيهما له منطلقين في طريقهما. لاحظ هو أن نيوت كان مستقراً في جلوسه تماماً بينما كول كان متشبثاً بمكانه، فقرّر أن يعطيه بعض التعليمات فيما بعد. لكنهما كانا من الجرأة بحيث يصبحان فارسين ممتازين كشقيقتهما، لكنه لم يفكر فيها أكثر من هذا، التفت إلى كيلر يسأله: «هل أنت بخير؟»

أومأ الغلام برأسه وهو يتمتم: «آسف.»

سأله ليون: «لماذا الأسف؟ لقد قمت بكل ما طلب منك. أما عدم تفحص أربطة السرج فهو ذنبي أنا، كان يجب أن أتأكد من أنك كنت تعلم ما تفعله، وأنا مسرور جداً لأنك لم تكسر عنقك.»

بان الاضطراب على الصبي، ما جعل ليون يقهقه ضاحكاً، ثم يتوجه إلى سرج جواده حيث أحضر من الجيب حبلاً ثم سأل الغلام: «هل تعرف كيف تلقي بأنشوطة؟»

«كلا يا سيدي.»

«حسناً، انتبه جيداً إذن، وسأريك كيف تضعها.»

أمضيا الدقائق التالية يتحدثان في هذا الشأن ثم إذا بصفير نبّههما إلى عودة الغلامين الآخرين، وهما يسوقان أمامهما الجواد الشارد. أمر ليون الصغير كيلر بأن يبتعد عن الطريق، ثم ثبّت نفسه، وعندما مرّ الجواد ألقى على

رأسه بالأنشوطة. وقف الجواد وهو يصهل ويحرك رأسه بعنف لكن ليون أخذ يتحدث إليه بلطف وهو يربت على عنقه يهدئه قبل أن يبسط البطانية على ظهره، وبعد عدة دقائق رفع السرج ووضعه مكانه، ثم تراجع إلى الخلف مشيراً إلى كيلر كي يستلمه منه. كانت نظرات الغلام التي رمقه بها، كلها اعجاب، ولم يستطع ليون مقاومة وضع يده على كتف الغلام. ارتسمت على وجه هذا ابتسامة عريضة وهو يتحوّل إلى العمل. عندما انتهى، ربت ليون على كتفه مرة أخرى، ثم عاونه على الصعود فوق السرج.

عندما عادوا يسيرون شمالاً مرة أخرى، كانت الابتسامات المشرقة تكسو الوجوه. كانت ابتسامة ليون أوسعها، لم يعد يفكر بعد الآن في القائهم في مدينة الباسو حيث يتركهم وشأنهم، وبدلاً من ذلك أخذ يفكر في عدد ما يحتاجونه من أحذية وقبعات وبنطلونات جينز، وما هي الدروس التي تلزمهم، ومتى يكون البدء بها، فكر أيضاً، في أن تلك الفدادين الثمانية التي سيشتريها يمكنها أن تنتظر، وأخذ يرجو أن تكون كاسي من الاقتصاد في النفقات كما يعرفها.

عادوا في ذلك المساء، أربعة عمال متعبين قذرين يجرون أقدامهم جراً، لكن ليون لم يقف إلا بعد أن تلقت الجياد العناية اللازمة، ثم دفع برفاقه الثلاثة إلى الحوض الذي يشرب منه الجياد أمام المخزن، وحاولوا هم أن يغرقوه بالقاء المياه عليه، بينما أخذ هو يضحك كما لم يضحك منذ وقت طويل.

«رأيت من الأفضل أن أحضر صابون.»

التفت وقد تلاشى ضحكه، وإذا به يرى كاسي تحمل صينية صفت فوقها علب مرطبات.

أشاح بوجهه عنها وأخذ ينادي: «لقد أحضرت لكم شقيقتكم شراباً، أيها الفتيان. فاخرجوا من الماء قبل أن تتلفوا أحذيتكم.» أخذ يساعد كلاً منهم في الخروج من الحوض، فاندفعوا والماء يقطر منهم وابتساماتهم من الأذن إلى الأذن، فقالت كاسي عند ذلك: «لم أر من قبل مشهداً كهذا، خذوا شرابكم إلى الباب الخلفي ثم اخلعوا ملابسكم وضعوها في الغسالة. ثم ادخلوا الحمام. فقد سخنت المياه.»

هتف التوأمان بصوت واحد: «آه، كلا يا كاسي نريد أن نقف تحت الدوش مثل ليون.»

اومأت برأسها بعناد: «بل يجب أن تجلسوا في حوض الماء الساخن. وإلا فستؤلمكم الحركة فيما بعد.»

قال ليون يأمرهم بهدوء: «افعلوا ما تقوله لكم شقيقتكم.» سار الغلمان متذمرين نحو خلف المنزل، بينما قدمت كاسي إليه بقية الشراب بيدها، لكنه اومأ برأسه نافياً، فهو لا يريد أن يحدث تلامس بين يديهما إذا ما أخذ العلبة من يدها.

فهمست: «أشكرك، على كل حال.»

نظر إليها بطرف عينيه قائلاً: «على ماذا؟»

«لأخذك الغلمان معك، كانوا متلهفين للذهاب.»

أومأ برأسه: «ليس ثمة مشكلة، لقد رحّبت بمساعدتهم لي.»

لاحت على شفتيها شبه ابتسامة: «يمكنني أن أتصور كم ساعدوك.»

حاول أن لا يبتسم وهو يقول: «لقد استطعت أن أستخلص منهم بعض العمل.»

قالت ببساطة: «هذا حسن.»

تذكر المزاح الذي اعتادا تبادله وذلك قبل أن يجد سبباً يجعله يعتقد بأنها غير مخلصة، وتملكه الاشمئزاز، ثم قال لها فجأة: «ادخلي إلى المنزل، إذا سمحت، فأنا أريد أن آخذ دوشاً.»

تلاشت الابتسامة عن شفتيها، بينما أشاح هو بوجهه. عندما استدارت للدخول أحس بأنه لا يستطيع أن يدعها تذهب، لكن كبرياءه جعله يسألها بسرعة، مدعياً أنه لا يتحدث عن نفسه: «هل هو والدك الذي كان يضربهم؟»

وقفت وعادت تستدير إليه قائلة: «كيف عرفت بذلك؟»

ضاقت عيناه فهو لا يريد أن يرى مبلغ ما تبدو عليه من جمال في ضوء النهار الشاحب.

«لقد سقط كيلر، وعندما حاولت مساعدته، نهض وهو يترنح قائلاً إنه سيرد لي الضربة. فهمت أنه كان يتوقع مني أن أضربه، وذلك النوع من التوقعات يأتي نتيجة التجربة. كان هو والدك، أليس كذلك؟»

أومأت برأسها، محوّلة عينيها عنه وكأنها تشعر بالخزي، ثم قالت برقة: «كنت أظن أن كل الآباء يضربون أولادهم. ولكنني عندما تزوجت جوزيف، وجدت الأمر غير صحيح، فقد وضع نهاية لذلك وقال لوالدي إنه سيضربه بشدة عند كل مرة يضرب فيها والدتي أو أحد الأولاد. كان سيفعل ذلك حتماً.» تاهت عيناها في الذكريات وهي تتابع: «ظهرت على والدتي، عند ذلك، سعادة لم أرها على وجهها من قبل.»

يبدو أنها كانت كذلك هي أيضاً، ولأول مرة يشعر ليون بوخز الغيرة من جوزيف هانتر.

سألها محاولاً تغيير الموضوع: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

هزت كتفيها وهي تجيب: «لقد مات جوزيف، ثم مرضت والدتي ولم يحب والدي أن يراها وهي تذوي شيئاً فشيئاً، فأخذ يمضي كل أوقاته خارج المنزل. بعد أن ماتت هي أيضاً، أخذ يصادق النساء، فكان قد اختار امرأة أخرى قبل أن تموت والدتي، لكنها تزوجت من رجل آخر، فتعرف عند ذلك، على مارلين وتزوجها حال وفاة والدتي، إن تعلقه بها يبدو واضحاً فهو لا يرد لها طلباً. لم تعجب مارلين الحياة مع أولاد زوجها، وأخذ صبرها ينفد يوماً بعد يوم، كما أن والدي أخذ يزداد خشونة.» وقفت تنظر طويلاً إلى الأرض، لكن ليون شعر بأنها لم تنته من كلامها. أخيراً، همست تقول: «كان عليّ أن أخرجهم من البيت، وعرفت أنك أشبه بجوزيف منك بوالدي.»

«وكيف عرفت ذلك؟»

قالت برقة: «من رسائلك. الطريقة التي كتبت بها عن هذا الفضاء الواسع، جعلتني أعلم بأن لديك قلباً واسعاً مفتوحاً، كنت أعلم بأنني سأجد شخصاً غير عادي.»

فقال: «تعنين أنك كنت تعلمين بأنك ستجدين بطاقة طعام مجانية.» وسرعان ما ندم على قوله ذاك دون أن يكون بإمكانه استعادته.

تراجعت هي خطوة إلى الخلف وكأنه صفعها على وجهها، ثم أخذت تحدّق في الفضاء. كان على وشك الاعتذار، عندما فردت ذراعيها كطائر مذعور، ثم أخذت

تقول بصوت شعر هو أنها تريده أن يبدو طبيعياً: «الطعام جاهز، إذا لم تشأ أن تدخل المنزل لتأكل، فدعني على الأقل، أرسل لك عشاءك مع نيوت.»

أومأ وقد تملكه ضيق بالغ: «لا بأس. إنه طعامي على كل حال.»

عضت شفتها وقد اغرورقت عيناها بالدموع: «ليون، إنني أعرف أنك تريدنا أن نرحل و...»

قاطعها بحدة: «ارسليه إليّ عندما يصبح جاهزاً.»

أومأت برأسها وهي تتجه نحو المنزل. أراد أن يمنعها وأن يجعلها تذهب في نفس الوقت، كان الألم يمنعه ولكنه أخيراً، لم يستطع أن يدعها تذهب بهذا الشكل، فناداها: «كاسي.» فوقفت تنتظر.

«أنا والأولاد سنذهب إلى المدينة غداً.»

استدارت إليه والخوف في وجهها: «إنك لن...»

تابع يقول بخشونة: «إننا بحاجة إلى بعض الأشياء، لا يمكن أن يذهبوا للعمل بمظهر الشحاذين، فإذا كانوا سيذهبون للعمل فهم يستحقون معدات لتساعدهم على ذلك.»

تحول الخوف في عينيها إلى رقة، الى عرفان الجميل، ولكن ليس هذا ما كان يريده منها. وتابع يقول: «إن نيوت سيساعدني في تجهيز غرفة حفظ الأطعمة للنوم، فأنا سأكون بحاجة إلى سرير، لقد أرهقني النوم على القش.»

تملكته الدهشة وهو يرى عرفان الجميل يتحوّل بسرعة إلى... غضب... لماذا؟ لقد كان بالغ الكرم نحوهم.

قالت بحدة: «حسناً جداً.» واستدارت على عقبيها مبتعدة

وهي تتابع: «اشتر لنفسك سريراً، إذن. و... وارقد فيه، فهذا لا يهمني.»

نظر إليها ذاهلاً ويداه على وركيه، من بإمكانه أن يفهم المرأة؟ ليس هو بكل تأكيد وإلا لما كان في مثل هذه المشاكل، إلا إذا... ولكن لا... لا يمكنه أن يصدق أنها تريده حقاً في سريرها. لكن، لا يمكن أن يكون تصرفها كله تظاهراً وادعاء، حتى ان ولا شيء أبداً يستطيع أن يقنعه بأنه كان كذلك، إن عليه أن يفكر في ذلك... فيما بعد، عندما تصبح الحقيقة أقل إيلاماً. هذا إذا كان ذلك اليوم سيجيء حقاً.

الفصل الثامن

عندما تصاعد رنين الهاتف، قفزت كاسي على الفور إلى الاستنتاج بأن الشاحنة تعطلت، أو انه قد وقع حادثاً، إنه أحد إخوتها، أو ربما قام التوأمان بعمل أحمق فتعرضا إلى القبض عليهما. لكن الأسوأ هو إذا كان ليون قد شعر بالاشمئزاز من الأمر كله ويريدها أن تحزم أمتعتها لكي ترحل عند عودته إلى المزرعة. كانت الامكانيات مفزعة... أو هكذا حدثتها نفسها وهي تتقدم مترددة نحو سماعة الهاتف.

«هالو.» بدت التحية خجولاً حتى في أذنيها، تبعها صمت طويل. وأخيراً تنحنحت امرأة وهي تقول: «آه، المعذرة. لا بد أنني طلبت رقماً خطأ. كنت أطلب مزرعة بارادايس.»

كان استنتاجها الأخير الآن سخيفاً هو أيضاً، لكنه لم يبد لها كذلك. فهذه المرأة لم تكن والدة ليون. فقد كان الصوت لفتاة شابة... شابة جميلة، أو امرأة تظن نفسها جميلة، على كل حال... ثم امرأة غير واثقة... امرأة صدمت وهي تسمع صوت امرأة أخرى على الخط. لا بد أنها حبيبة قديمة لليون... وربما ليست حبيبة قديمة جداً. تملكتها الفكرة فقالت بلهجة ذات معنى: «الرقم صحيح. ولكن ليون ليس هنا حالياً. فقد ذهب إلى المدينة.»

ساد صمت طويل آخر، كانت كاسي تتساءل أثناءه عما إذا

كان عليها أن تقول أكثر من ذلك. كان بإمكانها أن تخبرها بأنها زوجة ليون، ولكن، هل هي حقاً كذلك؟ لا يبدو عليه أنه ما زال يعتبرها كذلك. هي غير متفائلة بالنسبة إلى تغييره لرأيه قريباً. كانت في الواقع، تتصور أنها تعيش الآن هنا بشكل مؤقت. فهي لم تكن تشك في أنها ستجد نفسها، أخيراً، امرأة مطلقة، وذلك عندما يستطيع أن يحمل نفسه على ذلك. إن قلبه الرحوم، ونفسه الخيّرة منعاه من ذلك حتى الآن. وهذا هو الأمر. فليس بإمكانها أن تفسد عليه حظه مع امرأة أخرى. وهكذا عندما قالت المرأة بحذر: «هل يمكنني أن أعرف من هي المتكلمة، من فضلك.»

تجاهلت كاسي هذا السؤال وقالت: «هل يمكنك ترك رسالة للسيد بارادايس؟»

أحست بقنوط المرأة، ولكنها أحست أيضاً بأنها لا تريد أن تمنحها المعلومات التي تريدها. وكانت على صواب لأن المرأة قالت: «كلا، شكراً.» ثم وضعت السماعة والآن، ماذا ينبغي أن تخبر به ليون؟ عندما وقفت الشاحنة أمام الباب، كانت هي قد قررت أن تخبره بالمكالمة بشكل عادي. ولكن مضى بعض الوقت قبل أن تسنح لها الفرصة لذلك. فقد بدا وكأنه اشترى المتجر بأجمعه. كان الأولاد في فرحة طاغية وهم يتحدثون عن كل شيء بالتفصيل. لم يهمل ليون الولدين الأصغرين. فقد ابتاع لهما قمصاناً وسراويل جينز، حتى الأحذية. لقد دخل المنزل ليرى إن كانت القياسات تناسبهم. كان كل شيء كبير القياس. ولكن عندما اقترح اعادة الأحذية على الأقل، علا صراخهم ما أسقط هذه الفكرة. أما كاسي فلم تكن تستطيع الكلام.

أخيراً قالت: «ما كان لك أن تفعل كل هذا. فأنت لست مديوناً لنا بشيء.»

قال: «هذا صحيح. فأنا لست مديوناً لكم بشيء.»

ثم خرج من الباب مبتعداً. ولحقت هي به: «ليون...»

«إن لدي الكثير من العمل قبل أن أنام، يا كاسي. هل لك أن ترسلي نيوت ليساعدني؟ إننا سنتشارك في المخزن... لفترة ما.»

فهتفت: «هذا ليس ضرورياً، فإذا كنت لا تريد أن تعود إلى المنزل، فسأقيم أنا في المخزن.»

وقف ينظر إليها، قائلاً: «وترهقينني بذلك العبء من تلك المجموعة المتوحشة؟ لا تحلمي بهذا طوال حياتك.» تابع السير مسرعاً. وركضت هي خلفه تمسكه من ذراعه، استدار إليها يحاول تخليص ذراعه منها، وقد توهج في عينيه الغضب، فقالت بسرعة: «هناك امرأة اتصلت بك.»

حملق فيها: «من هي؟»

«لا... لا أدري. إنها لم تذكر اسمها.»

فعاد يحملق فيها: «آه، ربما هي والدتي. حسناً، هذا ما كان ينقصني الآن. إنهم سيكونون هنا غداً صباحاً، دون شك. وبنظرة واحدة سيعلمون جميعاً...»

قاطعته قائلة: «إنها لم تكن والدتك. على... على الأقل لا أظنها هي. فصوتها فتي... أكثر فتوّة، على كل حال، من أن يكون صوت والدتك.»

رفع حاجبيه: «هل أنت واثقة.»

حاولت التذكر اكثر، وعندما عادت ترفع نظرها إليه، كانت نظراته في مكان آخر. وقالت: «إنني واثقة.»

لمعت عيناه على وجهها للحظة قصيرة، ثم أومأ برأسه. أطبق فكيه ثم مال ليقف على قدم واحدة. وأخيراً قال: «لا بأس. إنها لم تكن والدتي، هل أصرت على... أن تعرف من أنت؟»

فكرت بسرعة، ثم هزت رأسها: «لقد سألتني ولكنها لم تصر على ذلك.»

ثار غضبه مرة أخرى، وسألها: «ماذا كنت ستقولين لها؟»

رفعت عينيها إلى عينيه ولم تحولهما، متسائلة عما إذا كان بإمكانه أن يرى أنه يحطم قلبها. من الواضح أنه لم يكن يريد ممن لم يكن علم بزواجهما أن يعلم به الآن، وخصوصاً أسرته. نعم، من المؤكد أن الرجل يستعد للطلاق. حسناً، لا يمكنها أن تشكو. رغم أنها لم تكن قد تزوجته بادعاء زائف... فقد كانت تحبه. ولكن لديه كل الأسباب التي تجعله يعتقد ذلك. هذا إلى أنه، كما قال، غير مديون لهم، ولها، بشيء. وقالت تجيبه: «لا شيء. فقد تصرفت وكأنني لم أسمعها، ثم سألتها إن كانت تريد أن تترك لك خبراً، فقالت كلا.»

بدا أنه تقبل ذلك، فقال باختصار: «يبدو أنها جاني زوجة أخي. الأفضل أن أرد على مكالمتها قبل أن يظهر أخي بلسانه المرهف كالسكين، على عتبة بيتي.» قال ذلك ثم عاد يدخل إلى المنزل. تبعته كاسي وقد سادها التوتر. ما الذي سيخبر زوجة أخيه عنها؟

في ثوان، كان يتحدث في الهاتف باسماً، وهو يقول: «جاني؟ كيف الحال، يا فتاة؟»

تحركت كاسي في أنحاء الغرفة محاولة أن تبدي الانشغال، لكنها بقيت قريبة منه. وألقى عليها ليون نظرة اشمئزاز، ثم قال: «نعم لقد تلقيت الرسالة.» ثم أدار ظهره إلى كاسي.

«آه، نعم. إنها فقط تلك التي كنت أراها. نعم، لقد تعطلت السيارة هنا، وكان عليّ أن أذهب إلى المدينة لاحضار غيار لاصلاحها.»

خفضت كاسي رأسها وقد شملها الشعور بالخزي ونقل ليون جسمه من قدم إلى قدم، وقال بصوت منخفض: «كلا، لا شيء جدياً. لقد كنت ظننت في البداية أن الأمر قد يكون مختلفاً، ولكن... إنك تعلمين كيف تكون مثل هذه المسائل.»

لا شيء جدياً ووضعت كاسي يدها على قلبها، وقد منعها شدة الألم من أن تستمع إلى بقية كلامه. وبعد عدة دقائق. وضع السماعة ثم استدار متمهلاً ليواجهها.

قال بصوت خشن: «حسناً، هذا كفيل بأن يبعد الذئاب لفترة.»

أومأت، وقد نجحت في منحه ابتسامة واهنة. ووقف هو لحظة، ثم استدار خارجاً بسرعة.

انهمرت الدموع من عيني كاسي. لقد فقدته. ولا فائدة من إنكار هذا أكثر من ذلك. لقد أصبحت القضية مسألة وقت الآن. وكانت كذلك منذ البداية. إنها لا تستطيع أن تلومه. وهي ستبقى على الدوام شاكرة الوقت الذي أمضياه معاً، لكل ما منحها، ومنح إخوتها. وإذ فكرت في ذلك، اندفعت إلى الباب وأخذت تنادي مرة أخرى: «ليون.»

«نعم.»

«شكراً لما فعلته للأولاد.»

تابع سيره وهو يحني رأسه ويرفع يده لها، فانهمرت الدموع على وجنتيها. لم يكن يريد شكرها. لم يكن يريد أي شيء منها. كان من اللطف بحيث لم يشأ أن يدع الغلمان يخرجون دون ملابس. لكن ليس ثمة من رجل، مهما بلغ من الطيبة، يحمل نفسه عبء مجموعة غلمان ليسوا أولاده وذلك دون سبب معقول. ومهما بلغت محاولاتها، فهي لم توفر له ذلك السبب. لقد أحبته منذ البداية من كل قلبها ووجدانها، ولكن هذا لم يكن كافياً. والآن لن يكفيها أي رجل آخر.

• • •

سمع ليون حركة في ظلام غرفة المؤنة التي أصبحت الآن غرفة نومه في المخزن، كذلك غرفة نوم نيوت. أما لماذا ترك الفتى ينتقل معه إلى هنا، فهذا ما لم يكن يعرفه. ما كان له أن يهتم بايذاء شعور الفتى بالرفض. ما كان له أن يهتم بأن المنزل الصغير هذا، منزله، كان ممتلئاً إلى آخره بآل استربريدج وآل هانتر... وببارادايس وبزوجته.

مهما يكن ما قاله لجاني أو كاسي، بالنسبة لهذا الأمر. فهو لا يستطيع التوقف عن التفكير في كاسي بصفتها زوجته. ما كان ليهمه ما حدث، ما كان ليهتم، لذلك ما دام كان يعتقد في أعماقه بأنها تحبه. لكنه أصبح يعتقد الآن بأنها لم تحبه، وهذا الاعتقاد شعر به يقطع قلبه كالسكين، ومع ذلك لم يصل به الأمر إلى حد يدعها فيه تذهب لشأنها. ليس الآن. ليس قبل أن يتأكد من أنها، وإخوتها سيمكنهم العيش وحدهم.

بقي مستلقياً، آملاً بأن يستقر نيوت وينام، لكن الملاءة الجديدة التي كان اشتراها للسرير أخذت تحتك ببعضها مصدرة حفيفاً في الظلام. وتنهد. إنها غلطة، إذ دفعت الفتى إلى الكلام، قائلاً: «إن الظلمة دامسة هنا من دون نافذة، أليس كذلك؟»

بدا في صوته شيء من الخوف من الظلام، ابتسم ليون، وقال: «هناك قنديل إذا كنت تريده.»

قال نيوت: «آه، كلا. فأنا أحب الظلام. فهو يجعل الغرفة تبدو دون حدود، كما تعلم، أشبه بالمزرعة.»

كان هو يعلم ذلك، ولكنه قال: «حتى المزرعة لها حدودها، يا نيوت. وكذلك كل شيء وكل إنسان.»

«هذا صحيح. ولكن هذا لا يبدو أنه موجود هنا، إن كل شيء فسيح مكشوف. إنه يجعلك تحس بنفسك حراً، وكبيراً.»

«هل الأمر كذلك؟»

أومأ الفتى برأسه، لأن كلماته لم تكن الجواب المباشر إذ قال: «هناك في غرب فرجينيا، كان يبدو وكأننا كنا نعيش الواحد منا فوق الآخر. حتى خارج المنزل، رغم كل الأشجار والجداول وغير ذلك، كان المرء يشعر بأنه محشور... متوتر... ولكن هنا، حتى التراب يبدو نظيفاً. هنا يشعر الانسان بما يشبه... الأمان.»

الأمان. كا هذا سهلاً تصوره. على الأقل ليس هنا من يلوح بقبضته في وجه نيوت فقط لأنه يعيش. لقد أدرك ليون ما كانت كاسي تسعى إليه. كانت تريد فقط أن يشعروا بالأمان. فهي لو كانت تسعى إلى الثروة أو الرفاهية،

لأخذت تتطلع إلى مكان آخر منذ اليوم الأول الذي جاءت فيه إلى هنا. وكان هذا جزءاً من السبب الذي جعله يشعر بأنه هو الذي كان المقصد. إذ ما الذي كان بإمكانه أن يقدم لها سوى هذا الفضاء الفسيح والعمل الشاق والعزلة؟ والحب؟ لكن هذا لم تكن تريده حقاً، كانت تريد فقط مكاناً آمناً لأسرتها.

آلمه أن يعلم بأنها لم تكن تريد سوى هذا الشيء القليل. وأنها كانت على استعداد للقيام بأي شيء، ومنح أي شيء، وذلك مقابل شيء من الأمان... حتى على حساب... حريتها. أما ما كان هو يريده فهو حبها، حبها فقط... أن تكون كل تلك العواطف والحب الشاعري، ويبدو أنه كان يريد الشيء الوحيد الذي لم تستطع منحه له، رغم محاولتها ذلك. تمنى فجأة لو أنه لم يكتشف ذلك، تمنى لو أن هذا حدث لأنها كانت تريده أن يحدث معه، ولا يريد أن يعلم شيئاً غير ذلك.

تملكه الذهول وهو يحس بالدموع تنحدر على وجهه. الذهول والخزي. فانقلب إلى جانبه وظهره إلى نيوت، كما لو أنه يخشى أن يراه هذا في هذه الظلمة الحالكة. لكن شيئاً حدثه بأن نيوت قد شعر بقنوطه هذا، ولم يكن مخطئاً في ذلك.

فقد قال نيوت برقة: «يا سيد ليون. إنني أريد أن أشكرك. لم يكن هناك من هو بمثل طيبتك وكرمك معنا. حتى ولا جوزيف.»

جوزيف... حبيب كاسي المخلص. وكتم ليون شعور الغيرة وحمل نفسه على القول: «حاول أن تنام، يا نيوت.»

سمع حركة مرة أخرى، وعند ذلك سمعه يقول: «يا ليتك لم

تغضب من كاسي بهذا الشكل، يا سيد ليون. فهي لم تكن تقصد إيذاءك. كانت تريد فقط رعايتنا.»

«إنني متفهم لذلك، يا نيوت.»

«إنها تعلم بأنها أخطأت، يا سيد ليون. لقد قالت إنها لم تخبرك بالحقيقة عنا، وهكذا تلخبطت الأمور بشكل ما، ولكنها تشعر بحزن بالغ لكل هذا. وهي تبكي أحياناً.»

إنه الشعور بالذنب، الشعور بالذنب ما يجعلها تبكي. هذا ما أخذ يفكر فيه. لقد كان من الغضب في البداية، بحيث أراد أن يؤلمها. إنما ليس الآن. لقد أراد ذلك لشدة ما شعر به من ألم، ومع أنه ما يزال يشعر بهذا الألم، فهو يدرك أن لا معنى لأن يسبب لها الشيء نفسه. ذلك أن كاسي لن تتألم مثله لأنها لم تكن تحبه، وها هو يعلم الآن أن ما فعلته معه، وكيف استغلته، كل هذا لا يهم، فهو يحبها، وليس هناك رجل يرغب في أن يؤذي المرأة التي يحب. ثم قال: «سأتحدث إليها، يا نيوت.»

أحس بارتياح الفتى.

«هذا جميل جداً، يا سيد ليون. وأنا مسرور حقاً، ولكن...»

«ولكن ماذا؟»

تمهل نيوت في الجواب، ثم: «الأمر هو... أنها سيسعدها أكثر فيما لو عدت أنت إلى البيت.»

استمر ليون صامتاً يحدق في الظلام. فالفراغ الذي كان يشعر به، ذلك الفراغ المؤلم الرهيب كان يهدد بابتلاعه كلياً.

قال بصوت خشن جاد: «ليس الأمر بهذه السهولة، يا نيوت.»

«ولكن إذا لم تكن ما زلت غاضباً منها...»

«ليست هذه القضية. لا يمكنني أن أشرحها لك ما عدا أن الرجل لا يحصل على شيء إلا إذا كانت كرامته محفوظة. حتى الرجل الذي يسمح باستغلاله، له كرامته هو أيضاً.»

حتى الرجل العاشق.

بقي نيوت صامتاً فترة طويلة إلى حد جعل ليون يظنه نائماً، وإذا به يسمعه يقول: «إن لديك الكثير مما يحفظ لك كرامتك، يا سيد ليون، لديك مرزعة بارادايس، وسمعتك الطيبة، عالي الشأن، ثم... ثم إنك أنشأت كل ذلك بنفسك. فأنت سيّد نفسك، يا سيد ليون. ثم إنك كنت كريماً بمالك مع الآخرين.»

قاطعه ليون وقد امتلأ شغفاً بالفتى: «نيوت، سأتحدث إلى كاسي غداً، ولكن هذا كل ما بإمكاني أن أعدك به. والآن، دعنا نرقد.»

أحس بالفتى يبتسم وهو يقول برقة: «تصبح على خير، يا ليون.»

ليون، دون سيّد. وتملكه حنين غريب إلى بو أخيه الأصغر سنّاً، سرعان ما سيعود بو إلى جامعته سول روس في ولاية ألباين. والتي كان على نيوت أن يذهب إليها، هو أيضاً، لكنه لم يشأ أن يفكر في ذلك الآن. لم يشأ أن يفكر في مبلغ عدم وضوح مستقبل نيوت، أو مبلغ كآبة مستقبله هو، ثم أغمض عينيه، ناشداً الراحة لنفسه المعذبة.

* * *

غطت كاسي قدر الطعام، ثم أطفأت الفرن، وكان رغيف

خبز الذرة موضوعاً على المائدة ليبرد. بينما كانت قد سبق وخبزت فطيرة التفاح. ابتعدت عن الفرن وهي تنشف يديها، ثم سوّت من ياقة قميصها، قد يكون قد فقد اعجابه بها، ولكنه كان يريدها فيما مضى وقد يكون بإمكانها أن تجذبه إليها مرة أخرى، ما عليها سوى المحاولة. وعلى كل حال، فقد كان هو الذي اشترى لها هذا القميص، اختاره بنفسه، وكانت تنوي أن تعيد إليه ما دفعه فيه من ثمن، بجانب ذلك، فقد كانا متزوجين. ويمكن لهذا الوضع أن يتغير، وقريباً جداً، إذا كان يريد أن يتحدث عما تتصور أنه سيتحدث عنه هذا المساء.

تنفست بعمق، ثم سوّت من شعرها قبل أن تخرج من المطبخ إلى غرفة الجلوس ومنها إلى الباب الأمامي. كان كيلر وكول جالسين على الأريكة يلعبان الداما، فالتفتت إليهما قائلة بلهجة رصينة: «أتركا الآن هذه اللعبة، فقد اقترب موعد العشاء إنني سأرسل الصغيرين إلى الداخل، وعليكما أن تهتما بأن يغسلا وجهيهما وأيديهما، وان يسرحا شعرهما. إنني أعنيكما أنتما الاثنين ايضاً.»

رفعا نظرهما متذمرين بينما اومأت باصبعها في وجهيهما محذرة: «إياكما أن تمسا الطعام في المطبخ قبل أن أعود وأقدمه للعشاء، أتسمعان؟»

لوى كول تقاسيم وجهه: «وما الفرق؟ فهو لن يدخل ليتعشى.»

قالت: «سنرى إن كان سيأتي أم لا. أما أنتما فافعلا ما أطلبه منكما وإلا فستحرمان من ركوب الخيل أسبوعاً كاملاً.»

فتح فمه ذاهلاً إزاء هذا التهديد، وأومأت هي برأسها راضية ثم خرجت من الباب. كان بيتي وفريدي وبارت يلعبون في الخارج، فنادت عليهم ليدخلوا المنزل، ثم استدارت عابسة نحو مخزن الغلال.

كان المخزن أكبر من المنزل بحوالي ستة أضعاف، لكنه أفضل تنظيماً مما كان عليه في السابق، بإمكانه أن يشكرها على جهودها في سبيل ذلك، على الأقل. دفعت الباب الثقيل الدوار، قليلاً، ثم انسلت إلى الداخل. كان ليون ونيوت في الزاوية البعيدة يمشطان ويعتنيان بالجوادين اللذين رافقانهما للعمل ذلك النهار. كان قيل لها ان ليس ثمة حاجة للتوأمين، وقد أحست بأن ذلك لا بد أن يكون عقاباً لأجل شيء ما أو نحو ذلك، لكنها قررت أن لا تتدخل في هذا الأمر. على كل حال، فثقتها في عدالة ليون كانت كاملة.

كانت وهي تقترب منهما، تسمع نيوت يتحدث، لكنه سكت عندما رآها. ألقى ليون عليه نظرة ذات معنى، فألقى ببطانة على ظهر الجواد، ثم استدار خارجاً، بينما أخذ ليون يمر بيده يلامس حصانه الأسود.

ثم قالت بلهجة عفوية: «العشاء جاهز.»

تسمّرت يداه بينما تابعت هي تقول: «إنه مكوّن من لحوم محمرة، وخبز ذرة وفطيرة تفاح. نأمل أن تتناول العشاء معنا.»

ألقى بالفرشاتين من يده إلى صندوقهما الخشبي ثم قال بجمود: «ليس العشاء هو الموضوع الذي أريد أن أتحدث معك بشأنه.»

قالت محاولة إخفاء قلقها: «أعلم ذلك. ولكن عليك أن تأكل، أليس كذلك؟ أي ضرر في تناولك الطعام معنا؟»

تجاهلها وهو يجذب بطانية من وتد في الجدار، ثم ينفضها ويضعها فوق الجواد. وبعد ذلك وضع له طعامه، ثم تحول إلى مؤخرة المربط. شعرت كاسي بنظراته تكاد تخترقها. وبالرغم مما كانت صممت عليه، تحفظت في وقفتها، وحوّلت نظراتها بعيداً، شاعرة بالحرج. ابتعدت عن البوابة عندما اتجه ليون نحوها، دافعاً إياها ثم أنزل المزلاج ووقف مستنداً إليه.

قال: «لقد كنت وعدت نيوت بأن أتحدث إليك.»

أجفلت، ثم سمرت نظراتها عليه: «نيوت؟ وهل حديثنا هو عن نيوت؟»

احنى رأسه قائلاً: «بل هو عنا جميعاً.»

«آه...» أخذت تتأمل أظافرها صامتة.

بعد لحظة طويلة، تنهد وهو يخلع قبعته ثم يتخلل شعره بأصابعه: «إنني أعرف أنك كنت فقط تريدين رعاية هؤلاء الغلمان عندما... إن ما أعنيه هو، إنني متفهم السبب الذي جعلك تقومين بذلك. إنني أعرف ان ذلك كان لأجلهم.»

رفع بصره إليها متشككاً: «أليس كذلك؟»

تقدمت خطوة إلى الأمام متلهفة إلى جعله يفهم، ثم قالت بزقة: «حسناً، كان ذلك لأجلهم جزئياً، لكنه بالاجمال، كان لأجلي أنا. أردت أن أكون زوجتك، يا ليون، وما زلت أريد ذلك.»

اخفض نظراته وأخذ يحفّ بقدمه التراب عن الأرض، ثم قال: «حسناً، وهذا هو وضعك الآن، قانونياً على كل حال.»

كان ذلك بمثابة صفعة تلقتها. وشهقت، ثم قالت بهدوء: «أريد أن أستمر زوجة لك، بأي شكل كان.»

نظر إليها بحدة: «أنك مستعدة للقيام بأي شيء لأجل هؤلاء الغلمان، أليس كذلك.»

شحب وجهها، ثم قالت: «هذا ليس صحيحاً. إنني أريد ذلك لأجل نفسي.»

«وما الذي تريدينه لأجلي أنا، يا كاسي؟»

سألها ذلك بصوت خشن منخفض.

قالت ضارعة: «كل الخير، يا ليون. أريد لك كل الخير والسعادة. فأنت تستحق هذا.»

فقال بحدة شاعراً فجأة بالغضب: «إنه مجرد عرفان بالجميل، إذن. حسناً، ليس هذا ما أريده لأجلي، يا كاسي، ليس هذا ما أريده، مطلقاً.»

ناشدته متوسلة: «أخبرني فقط ما الذي تريده، يا ليون، أي شيء تريده، فقط أخبرني.»

كانت عيناه قاسيتين ملتهبتين حين قال: «هنالك أشياء لا يمكن للانسان أن يملكها بمجرد أن يطلبها يا كاسي، فليس بإمكانك التراجع ثم القيام بالعمل مرة أخرى، لا يمكنك أن تلغي الأشياء التي سبق وحدثت.» أشاح بوجهه وهو يتمتم قائلاً: «لا يمكن للمرء أن ينتج مشاعر غير موجودة.»

تجمدت في مكانها. حسناً، هذا هو الأمر، إذن إنه لم يعد يريدها بعد الآن. ازدردت ريقها شاعرة بالتشنج: «إذن، فأنت تريدنا أن نرحل.»

خرجت كلماتها بصوت منخفض يقارب الهمس. كانت الدموع تتجمع في عينيها، فأرادت أن تهرب منه قبل أن تبدأ بالبكاء، فمرت بجانبه مسرعة حذرة من عدم ملامسته.

قال: «كاسي.» لكنها لم تتمهل. أخيراً استطاعت أن تقول من فوق كتفها: «عليّ أن أعدّ طعام العشاء.» أسرعت خارجة من الباب ثم مجتازة الفناء، وهي تحاول كبح دموعها بعنف. لا يمكنها أن تبكي الآن، عليها أن تفكر، وأن تخطط. عليها أن تجد مكاناً تذهب إليه، لكن دموعها لم تطاوعها، فأخذت تمسحها بأصابعها إلى أن وصلت إلى البيت. وقفت عند المدخل تمسح دموعها وتهدىء من مشاعرها إلى أن هدأت، ولم تكن تعلم بأنه كان يراقبها من ظلام مدخل المخزن، وهو يغمغم بالأسبانية.

رسمت على شفتيها ابتسامة، ثم دخلت المنزل، كان نيوت جالساً على مقعد بذراعين وقد مشط شعره المبتل إلى الخلف، وارتدى قميصاً نظيفاً فوق بنطلونه الجينز. وكان يسرّح شعر بيتي الذي كان قد غسله له، بينما وقف فريدي إلى جانبه ينتظر دوره. عندما دخلت رفع بصره إليها، ورأت القلق في عينيه. فجعلت ابتسامتها مشرقة دون أن تقول شيئاً وهي تتجه نحو المطبخ.

كان كول قد وضع الأطباق بجانب قدر الطعام على الفرن، لهم هم الثمانية. يبدو أن هناك من أقنعه بأن ليون سيتناول العشاء معهم. لا شك أنه نيوت، وعضت شفتها وهي تفكر في مبلغ خيبة أمله إذا لم يأت ليون. لكن ماذا بإمكانها أن تصنع؟

رفعت غطاء القدر بخفة، ثم ابتدأت بسكب الطعام في الأطباق وبنقلها إلى المائدة حيث كان كول مشغولاً بوضع المناشف الورقية وأدوات المائدة. كانت تسمع أصوات كيلر وبارت في الحمام، يتضاحكان ويعبثان بمياه الحوض.

صاحت تقول: «ابتدأ العشاء.» تصاعد صوت وقع الأقدام من مختلف الجهات. وملأت الطبق السابع، ثم وضعته خلفها على المنضدة.

«كاسي.»

استدارت لدى سماعها صوت نيوت. كان ليون واقفاً عند عتبة الباب، وقبعته في يده، بينما وقف نيوت بجانبه متأخراً عنه قليلاً. خفق قلبها، وساد صمت غريب لحظة طويلة أوماً ليون بعدها وهو يتحرك من مكانه، قائلاً: «الرائحة شهية.»

أخذت تحدق فيه، غير واثقة مما يريد. تنحنح نيوت وهو يتقدم إلى المائدة. كان هناك ستة كراسي فقط، ولكن كاسي كانت قد وضعت لوحاً خشبياً بين اثنين منها. رفع فريدي على اللوح، وأشار إلى التوأمين بأن يجلسا على جانبيه، ثم أشار إلى بارت بأن يجلس على كرسي عبر المائدة وذلك قبل أن يحمل الطبق الزائد الموجود على الموقد ثم يقدمه إليها برقة.

كان ليون في الواقع قادماً ليأكل معهم، استدارت هي بسرعة وملأت الطبق بالطعام، ثم حملته إلى نهاية المائدة ووضعته هناك، مشيرة إليه بيدها بأن يجلس على تلك الكرسي. فعلق قبعته على المشجب ثم سحب الكرسي. جلس نيوت بجانب بارت، تاركاً كاسي وابنها بيتي ليتشاركان في الكرسي الباقية. جلست كاسي عليها وربتت على ركبتها قائلة: «تعال اجلس معي، يا بني.»

لكن خيبة الأمل تملكتها وهي ترى بيتي يستدير إلى ليون، بشكل غير منتظر. نظرت إليهما يحدق الواحد منهما في الآخر، بيتي يرفع بصره إلى أعلى، وليون ينحدر

ببصره إلى أسفل. ثم استدار ليون حول الكرسي وجلس عليها.

تقدم بيتي إلى جانب ليون ووضع يده على ساقه، نظر ليون إلى يده تلك محاولاً التغلب على الذهول الذي بدا على وجهه، ثم نظر إلى كاسي.

عادت هي تقول: «تعال هنا، يا بني.»

لكن بيتي كان الآن يتسلق إلى حضن ليون، فنظرت إلى ليون بذعر. كان هذا قد مد ذراعيه وكأنه يخاف من لمس الصبي وكذلك من أن لا يلمسه. بينما كان بيتي يتكوم ويتحرك إلى أن وجد وضعاً مريحاً جلس فيه على ركبة ليون. جلس هناك لحظة، ثم مال خلفاً على صدر ليون، ووضع اصبعه في فمه. نظر ليون إلى كاسي، ثم إلى الغلمان حول المائدة. وأخيراً حمل الصبي بيديه الاثنتين، ثم أجلسه جيداً، محيطاً خصر الصغير بذراعه، ثم مال إلى الأمام قليلاً وهو يقول بصوت جامد النبرات: «قدمي خبز الذرة، من فضلك. ثم إننا بحاجة إلى ملعقة أخرى.»

كان قلب كاسي يقرع كالطبل، وانتبهت إلى نفسها وهي تحدق فيهما فاتحة فاها، عندما أشار إليها نيوت بأن تناوله من أدوات المائدة القريبة منها. اختطفت ملعقة وسكيناً بيد واحدة ومررتهما عبر المائدة. تلقاهما بارت فنظر إلى ليون متردداً ثم سار نحوه ليضعهما على المائدة بجانب طبقه. لكنه أخطأ ووضعهما وسط الطبق غامساً قبضته في طعام ليون. احمر وجه بارت وهو يرفع يده من الطبق. وفتح ليون فمه وهو ينظر إلى بارت غير مصدق، ثم أرسل إلى كاسي نظرة حازمة وهو يقول آمراً: «خذي الصبي إلى الباسو واشتري له نظارات.»

نظارات؟ وخفق قلب كاسي. إنه يخبرها انه بإمكانها أخذ... آه... تلاشى الفرح وتناولت لقمة رفعتها إلى فمها: «إنني... إنني لا أستطيع.»

رفع رأسه مرة أخرى: «لا تستطيعين؟»

نظرت إليه ثم قالت بحدة: «لا أحسن قيادة السيارة.»

حدق إليها وكأنه لم يسمعها، ثم عاد يجلس في كرسيه قائلاً: «يا لك من امرأة. لا يمكنك الاستمرار في العيش هنا دون أن تحسني القيادة.»

شهقت، وسبقها لسانها بالقول: «وهل سأستمر في العيش هنا، يا ليون؟»

اخفض رأسه ونظر إليها عابساً، بدا وأن كل من في الغرفة قد حبس أنفاسه. حتى بيتي استدار ينظر إليه بترقب. نظر ليون إلى نيوت ثم التقط شوكته وغمسها في طبقه، متمتما وهو يرفع اللقمة إلى فمه: «وأين ستعيشين إذن؟»

تملك كاسي الارتياح، ولكنها أرغمت نفسها على الجمود وهي ترى ستة أزواج من الأعين تحدق فيها. كان يكفيها أن تعلم أنه لم يقرر طردها من منزله. ولكنها لم تستطع الامتناع عن التفكير في حاجة بارت الماسة إلى نظارات، فنظرت إلى ليون ببلادة وقالت: «و... وماذا بالنسبة إلى نظارات بارت؟»

بدا الضيق على وجهه، ولكن ذلك سرعان ما تبدد، ما جعلها تتساءل عما إذا كانت رأت ذلك فعلاً.

تمتم: «من الواضح أنه لا يستطيع رؤية ما هو أبعد من أنفه. سنأخذه إلى المدينة في أول فرصة سانحة، ولكن أولا

عليك أن تتعلمي قيادة السيارات. فمن غير المعقول أن تمكثي هنا وانت تجهلين ذلك. ماذا لو حصل أذى لأحد هؤلاء الغلمان وأنا في المزرعة؟ نعم، يمكنك استدعاء سيارة اسعاف. ولكن هل لديك فكرة كم ستأخذ من الوقت لتصل إلى هنا؟ إن الشفاء عندها قد يكون متوقفاً على الحظ فقط.»

تبادل الجميع النظرات، حول المائدة، وأخيراً تابع ليون طعامه وتمثل به الآخرون، جميعهم ما عدا نيوت وبيتي اللذين كانت نظراتهما متعلقة بجانب وجهه. وما لبثت نيوت أن تحرك في كرسيه وهو يتنحنح، نظر إليه ليون ثم وضع مرفقيه على المائدة وقال: «حسناً؟»

جذب نيوت نفساً عميقاً. ثم سأل برجاء: «وماذا... ماذا عن تعلمي أنا قيادة السيارات؟»

رأت كاسي علائم التفهم تكسو ملامح ليون، وقال: «آه... لا تخبرني...» وضع شوكته على المائدة بعنف وهو يقول: «ما شأنكم، أيها الناس؟ ألا يستطيع أحد في غرب فرجينيا أن يقود سيارة؟»

احمر وجه نيوت، وصرفت كاسي بأسنانها. ما كان له أن يحرج أخاها. قالت وهي تسمر نظراتها في طبقها: «إن الذين يقودون السيارات في غرب فرجينيا، هم أولئك الذين يملكون سيارات.»

اظهر ليون الشعور بالخجل مما قاله، وتابع: «سنبدأ غداً. سأعلمكما أنتما الاثنين. لكن لا بد وأن يبقى هنا من يقوم بالعمل.»

قال ذلك وعيناه تتجهان نحو التوأمين.

ازدرد كول ريقه ونظر إلى أخيه الذي بادله نظرته تلك قبل أن يقول: «يمكننا... يمكننا أن نعتني بالجياد.»

أضاف كول: «وبفريدي وبيتي.» كان واضحاً أنه أراد بذلك التأثير عليهم، وأخفت كاسي ابتسامة. مهما كان ما حدث بينهما وبين ليون، يبدو أنهما تعلما درسهما.

قال كلير: «والبيت أيضاً. يمكننا أن ننظم البيت.»

هتف فريدي وهو يضرب جبهته بيده: «آه، يا أخي.» ولسوء الحظ كانت يده هذه ممسكة بالشوكة التي تحمل قطعة لحم مغموسة بالمرق فسال على شعره. كبت نيوت ضحكة مكتومة. بينما ضحك التوأمان بصوت عال. أما بارت فقد مال إلى الأمام محاولاً أن يرى ما حدث. كما أن كاسي كبتت ابتسامة، كذلك بيتي أشار إلى فريدي بإصبعه وهو يرفع حاجبيه بشكل مضحك. أما فريدي الذي شعر بالحرج على الفور، سرعان ما أصبح مسروراً من نفسه، فحَوَل عينيه وأخرج لسانه وأخذ يهز رأسه من جانب إلى جانب، باعثاً بذلك، موجة جديدة من الضحك. أما ليون فقد بقي رأسه منحنياً على طبقه، ولكن كاسي تأكدت من أنه كان يخفي ابتسامة. أخيراً انتهى الضحك وعاد كل واحد منهم إلى طعامه، بينما أخذ فريدي يدعك رأسه بالمنشفة.

بعد لحظات قليلة، وضع ليون شوكته وأمسك بملعقة قدمها إلى بيتي الذي تجاهلها وحرك ليون جسمه ما جعل الطفل ينظر إليه، فقال له: «اخرج اصبعك من فمك ثم كل طعامك.»

حدق بيتي إليه بدهشة، ثم وببطء، أخرج اصبعه من فمه وأمسك بالملعقة وانحنى يأكل من طبق ليون. عندما أصبح

فارغاً، دفع ليون الطبق إلى الأمام رافعاً نظره إلى كاسي، وهو يقول: «هذا حسن. نريد المزيد من فضلك. وهذه المرة ناولينا خبز الذرة.»

شعرت كاسي بدفء الأمل يسري في كيانها، ومنعت من القول أحبك للرجل الجالس عند نهاية المائدة. أخذت الطبق ثم نهضت عن كرسيها. وعندما ملأته بالطعام الدسم المغذي، حدثت نفسها جادة. بأن تقبله لابنها، وعطفه على بارت لا يعني أنه يريد أن يصفح، وينسى... لكنها البداية.

عندما عادت إليه بالطبق، كان وجهه خالياً من أي تعبير، وكذلك وجهها، لكن شعلة الأمل استمرت في التوهج.

الفصل التاسع

قال ليون وهو يحيط كتفيها بذراعه ليثبت يدها على عجلة القيادة: «إسترخي... إسترخي فقط.»

ازدردت كاسي ريقها وهي تومىء برأسها، شاعرة بالألم وهي تراه بجانبها، يلامسها عند الضرورة.

عاد يقول آمراً: «إرخي قبضتك قليلاً، فعجلة القيادة لن تذهب إلى أي مكان من دونك.»

تحرك نيوت في المقعد التالي لها ثم اخذ يحدق فيها، شعرت هي باللون يصبغ وجنتيها، لماذا وافقته على ذلك؟ لقد أمضيا الآن أياماً على هذه الحال، ما كان يرهقها تماماً، نيوت على الأقل، كان عليه ان يبقى في الخلف إلى ان يحين دوره للقيادة، عند ذلك لا يكون ليون مرغماً على الالتصاق بها، ما يلهيها عن استيعاب الدروس. وتنفست بعمق.

تخلل ليون شعره بيده وهو يقول لها: «هل لك أن تسترخي، من فضلك؟»

اشتعل غضبها، ما جعل دموعها تنهمر وهي تقول: «كيف يمكنني ان استرخي وانت تصيح بي بهذا الشكل؟»

انحرفت الشاحنة إلى اليسار بشكل خطر، فتمسك بعجلة القيادة بينما كانت هي تصلح المسار، ما جعل الشاحنة تندفع على الرمال إلى اليمين خارج الطريق، وصرخت كاسي، بينما تمسك نيوت يمنع نفسه من الاصطدام بما

امامه، وضغط ليون على المكابح، ثم توقفت الشاحنة وهي ترتجّ بعنف.

صرخ ليون: «اخرجا... اخرجا... اخرجا.»

وبسرعة فك نيوت وكاسي الأحزمة ثم اندفعا إلى الخارج، ووضع ليون رأسه إلى أسفل واخذ يعمل بيديه وهو يشتم بالأسبانية إلى ان عاد إلى هدوئه، عند ذلك إنزلق إلى أسفل العجلة، ثم خرج إلى الأرض الرملية حيث اخذ يتفحص العجلات.

أخيراً قال: «لا بأس يا نيوت، عليك ان تبقى هنا لعدة دقائق بينما نسوق انا وكاسي السيارة إلى نهاية الطريق ثم نعود، ربما هي تستطيع من دون احد يراقبها، ان...»

قالت كاسي وهي تتصور مبلغ التأثير الذي سيحدثه وجوده بقربها على مشاعرها، قالت تعترض: «كلا، لا أريد ان اتعلم القيادة، لا استطيع ذلك.»

قال: «ليس لديك خيار في هذا، يكفي المخاطر التي تصادف من يعيش هنا، ومحاولة العيش دون تعلم القيادة هو طيش بالغ وتهوّر.»

«لا يهمني.»

«بل يجب عليك ذلك.»

كان الحق معه، وكانت هي تعلم ذلك، لكن اعصابها كانت مرهفة حساسة فوق العادة، وكان قلبها مايزال يخفق، أغمضت عينيها تقول: «لا استطيع القيام بذلك.»

مال برأسه إلى جانب قائلاً ببرودة: «لا تستطيعين القيام بذلك؟ ألست انت المرأة التي نزلت إلى الأخدود لاطلاق الثور؟ اتذكرين؟ الست انت المرأة التي أخرجت ابنها

واشقائها الصغار من غرب فرجينيا إلى حياة جديدة؟ المرأة التي جعلتني اتزوجها في أقل من اسبوعين فقط؟ اظن بإمكانك ان تتعلمي قيادة شاحنة صغيرة.»

كانت تنظر اليه وقد فتحت فمها ذاهلة، لكن الغضب سرعان ما تبع الذهول، فقالت تتهمه: «لقد أردت انت ان تتزوجني بقدر ما أردت انا ان اتزوجك.»

قال بحدة: «ربما هذا صحيح، ولكنك لم تجعليني أرغب في البقاء زوجاً لك.»

قالت بنعومة: «كنت سأفعل هذا لو انك سمحت لي بذلك.»

حدق اليها وقد اخذت ملامحه تلين، لكن وجهه عاد يقسو مرة أخرى وقال بحدة: «اسمعيني جيداً، إذا أردت ان تمكثي في باراديس، فتعلمي القيادة، وإلا فسأنقلك إلى المدينة.»

حملقت فيه، ثم رفعت ذقنها وهي تندفع نحو الشاحنة: «هذا حسن.» جلست تشد الحزام حولها، وبقي هو واقفاً في مكانه لحظة، محاولاً السيطرة على طبعه، ثم نظر إلى نيوت أخيراً: «انتظر هنا.» وسار نحو الشاحنة حيث جلس بجانب كاسي، ثم ابتدأ يقول: «والآن، أول ما عليك ان...»

«ابتعد عنك.» قاطعته بذلك بحزم.

حدق اليها: «ماذا؟»

حولت نظراتها عنه: «قلت ان تبتعد عني، فأنا لا استطيع ان افكر بينما انت ملتصق بي هكذا.»

ألقى عليها نظرة طويلة متسائلة، ثم ابتعد قليلاً وهو يسألها متهكماً: «اتريدين شيئاً آخر، يا اميرتي؟»

استدارت اليه غاضبة: «أقفل فمك الآن، وابتدىء بتعليمي.»

تمتم يقول: «من الصعب علينا، نحن الاثنين، ان نقوم بذلك.»

لكنها تجاهلته، وهي تقول: «ثم شد الحزام حولك، لأنني إذا كنت سأقتلك فأنا افضل ان افعل ذلك بخنقك بيدي هاتين.»

أخذ يشد الحزام حوله، حانياً رأسه، ولكنها لاحظت شبح ابتسامة يحاول ان يخفيها، فجأة استقام الأمر معها حسناً، انها ستتعلم القيادة. فإذا كان سينقلها إلى المدينة فعليه ان يبحث عن عذر آخر لذلك. فهي الآن ستوفر له كل الاسباب التي تجعله يبقيها معه هنا، ومن ضمن ذلك تعلمها القيادة. ووضعت قدمها عابسة على دواسة الوقود، وذلك دون ان تلقي نظرة على ليون قبل ان تنساب بهما الشاحنة في طريقها.

بعد ذلك بنصف ساعة كان نيوت خلف عجلة القيادة، وجلس ليون بجانبه يعطيه تعليماته بهدوء، بينما كانت كاسي تنظر من نافذة السيارة متأملة، لقد قامت بإنجاز كاف في التعلم ولم يعد ليون إلى تهديده بنقلها إلى المدينة، فكرت بمرارة ان كان كل اشقائها سيرافقونها في انتقالها إلى المدينة، إذا حصل هذا، لكنها ما لبثت ان اعترفت لنفسها بأن نيوت غير ملام في مشاكلها مع ليون، فليس هناك من تلومه سوى نفسها، لماذا؟ لماذا لم تقم بترتيب وضعها منذ البداية كما كانت تنوي؟ ياليتها لم تقع في غرامه منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها لكانت توصلت إلى تفاهم كامل بهذا الشأن دون خيبة أمل، وقد يصبحون جميعاً سعداء بعد ذلك.

الآن ليس هناك ماتراه سوى مستقبل قاحل جاف للغاية،

إلا اذا استطاعت إقناعه بأن مشاعرها نحوه صادقة... إلا إذا جعلته يحبها، ولكن كيف ستتمكن من ذلك؟ اخذت تقلب هذا السؤال في ذهنها، ولكن الأجوبة كانت مزعجة، فهي تطيح بكرامتها، ومع ذلك فقد وضعتها قيد الاعتبار، وما فائدة الكرامة إذا كانت ستجعلها تفقد أهم شخص في حياتها؟ لم يكن غريباً ان يصبح ليون بهذه الأهمية بالنسبة إليها، فهو رقيق مستقيم، كريم، ومجدّ في عمله. كانت فيه كل صفات جوزيف، ولكن ما جذبها إلى ليون كان زخم العواطف التي يملكها هذا الرجل، عواطف افرغها عليها بسخاء ودون مناقشة إلى ان أوجدت له سبباً لمناقشتها في عواطفها نحوه، والآن عليها ان توجد له سبباً يجعله زوجاً لها... هذا إذا كان وضعهما المضطرب هذا يمكن تسميته زواجاً.

لشدّ ما هي بشوق اليه، قد يبطل زواجهما، ولكن كيف بإمكانها أن تتخلص من هذه المشاعر؟ ربما إذا هو فعل معها ما فعلته هي معه... كلا، لا يمكنها حتى ان تتصور ذلك، ذلك ان ليون اصدق وأعدل واكثر كياسة من ان يفعل فعلتها، حسناً، من الآن فصاعداً عليها ان تكون مثله في الصدق والعدل واللطف، والجد في العمل والرقة، والسخاء، والحب... انها ستصبح كل شيء قد يرغبه فيها.. حتى ولو أرادها، في النهاية، أن ترحل.

* * *

تقدم نيوت في تعلم القيادة بشكل جيد إلى حد جعل ليون يقول مازحاً انه سيرسله إلى الباسو مع كاسي وبارت، وطبعاً لم يكن هذا ممكناً حيث ان نيوت ليس لديه رخصة

للقيادة، وأعطت كاسي الغلمان تعليمات صارمة عما عليهم ان لا يفعلوه في غيابها مع ليون. ثم اعطاهم ليون تعليمات محددة عما عليهم ان يفعلوه. فيما بعد وهما في طريقهما إلى المدينة، اخبرها بأنه من الأسهل عليهما ان يتأكدا من أن الأولاد سيتجنبون القيام بما هو محظور عليهم، إذا هم شغلوا انفسهم بالقيام بما هو مطلوب منهم عمله، وكان هذا منطقياً تماماً.

قالت: «هذا ذكاء بالغ، انك والد طبيعي.» عندما رأته يحملق فيها بضيق، قالت محوّلة وجهها نحو النافذة: «لا بأس، يمكنك ان تتعلم.»

استمر الصمت بينهما فترة، ولكنهما عندما وصلا إلى الطريق الرئيسي، فتح ليون جهاز الراديو، عند ذلك ابتدأ بارت في إلقاء الأسئلة عما يمرون به في طريقهم، ونظر ليون اليها متفكهاً، ثم اخذ يختلق له قصصاً خيالية عما يمرون به... هنا جياد ذوات اشكال غير عادية، وافاعٍ تنساب ثم تختفي في حجورها، وسحالي ذوات قرون، وضفادع برية يكاد الدم يتفجر من أعينها.

هذا بينما كانت كاسي لا ترى سوى الصحارى الفسيحة والجبال، هذا إلى أسيجة لا نهاية لها. بقي يسلّي بارت بأقاصيص كهذه إلى ان اصبح الأمر سجالاً بينهما، كل يروي ما عنده من اساطير، ما جعل صبر كاسي ينفد فتهددهما بأن تلقي بهما، هما الاثنين، من السيارة.

عند ذلك اخذ ليون يصاحب الراديو في الغناء مضيفاً كلمات من عنده كلما كانت الأغنية رزينة أو جادة، فأخذ ضحك بارت يتعالى إلى ان دمعت عيناه، وفجأة كانوا قد

اصبحوا في المدينة، كانت هذه اسرع ثلاث ساعات سفر عرفتها كاسي في حياتها.

سار ليون بالسيارة مباشرة إلى مطعم في الناحية الشرقية، وبعدما طلب لثلاثتهم الطعام، توجه إلى الهاتف ليطلب من العامل عنوان أقرب عيادة لفحص العيون في ظرف ساعة، واخذ اسم طبيب يمكنه ان يفحص عيني بارت أثناء فرصة الغداء. وهكذا اخذ الثلاثة غداءهم، وخرجوا إلى حيث أمضوا ثلث ساعة في البحث عن عيادة الطبيب، وعندما وصلوا كانوا قد تأخروا خمس دقائق فقط.

كتب الطبيب وصفتين طبيتين لنظارات لبارت واحدة منهما يمكن احضارها بسهولة وتساعد بارت على ان يفعل ما يريد، اما الثانية فهي اكثر دقة في المساعدة على الرؤية حتى للمسافات البعيدة. ولكن هذه سيستغرق صنعها وقتاً اطول.

عندما اخذ المساعد يعد الملف ويلقي بأسئلته، كان جواب بارت عن الاسم انه (بارت بارادايس)، وتبادل ليون وكاسي النظرات ذاهلين، لكن عندما همت بأن تصلح من الأمر، منعها ليون من ذلك بلكزة من يده على ذراعها، وامتزج ذهولها بعرفان جميل صامت بدا في عينيها، اخذ بعد ذلك يتجنب نظراتها، ولكنه اخذ يتصرف مع بارت وكأن ليس ثمة شيء غير عادي قد حدث.

غمرها الحب لهما، لكنها بقيت صامتة، فلم تصدر عنها أي كلمة شكر أو حركة تعاطف.

عند شراء النظارات، تملك كاسي القلق بالنسبة إلى ثمن الإطار، بينما اصر ليون على النوع الجيد، أما بارت فكان كل ما يهمه هو مظهره في المرآة.

بعد ذلك اخذ ليون كاسي وبارت إلى متجر البقالة حيث تبضعوا من مختلف انواع البقالة، هذا إلى عدد من المجلات والكتب الهزلية.

عندما عادوا إلى متجر النظارات، اصر بارت على الجلوس على مقعد طالباً من كاسي ان تقرأ له في احد الكتب الهزلية تلك، طلب ذلك من كاسي أولاً وبعد ذلك من ليون الذي قام بهذا العمل بشكل يدعو إلى الإعجاب من حيث الإلقاء والتعبير بصوته، لم تر كاسي من قبل رجلاً يتصرف مع ولد بهذا الشكل، فوالدها لم يكن يزعج نفسه بالأولاد، كما ان بيتي كان صغيراً جداً عندما مات والده.

تملكت كاسي الحيرة، ولم تكن وحدها كذلك، فقد كان بارت منجذباً إلى هذا الرجل بشكل غريب، كان اكبر من ان يعبر عن مشاعره نحوه بالعناق والضم، وهكذا جلس بقربه واضعاً ذراعه حول كتفيه بينما وضع ليون ذراعه حول عنق الغلام، متصنعاً العنف، جاذباً إياه نحوه. بان السرور البالغ على وجه الغلام، ولكن ما هزّ مشاعر كاسي هي السعادة التي كست وجه ليون. لم تكن مخطئة، فقد كانت الأبوة. شيء طبيعي فيه، لقد رأته يمنح بارت شيئاً هي نفسها لم تكن تأمل في منحه له أو لأشقائها، حتى لابنها بيتي، ورأت كم كانت على صواب حين حضرت إلى تكساس وأحضرت اشقائها رغم تصرفها الخاطىء من هذه الناحية. عاهدت نفسها مجدداً على ان تقوم بكل ما يمكنها من جهد لكي تبقي هذه الأسرة متماسكة معاً.

الأسرة؟ هل كانوا أسرة حقاً؟ فكرت في بارت وهو يعطي اسمه لمساعد طبيب العيون ربما ليس لهم جميعاً نفس

الاسم العائلي، ولكنهم بشكل ما كانوا جميعاً اشبه بأسرة، ويوماً ما سيكون لديهم فردوس أرضي، وهو ما يعنيه اسم بارادايس، وذلك في تلك المزرعة البالغة عشرين الف فدان والتي هي الآن بيتهم. فقط لو ان زوجها يعود إلى التفكير فيها... ومعاملتها بصفتها زوجته.

* * *

كان بارت لا يعرف الملل، ولم تكن كاسي تستطيع جعله يمكث في البيت حتى أثناء الليل، فالآن بعد ان اصبح يرى بوضوح مرة أخرى، أراد ان يخرج ليرى الريف والسماء وكل ما بينهما، وعندما شكت ذلك لليون، طالبة منه ان يستعمل نفوذه لدى الصبي، ضحك فقط وقال: «فكري في ما سيحدث عندما تصل تلك العدسات الأكثر دقة. ربما سنضطر لشراء مرصد فلكي له هدية العيد فبإمكانه ان يرى بواسطته على بعد أميال.»

العيد؟ هل قال انهم سيكونون هنا عندما يأتي العيد؟ امتنعت عن السؤال عما إذا كان يعني هذا حقاً، لكنها قررت ان تقوم بشيء كانت اخذت تفكر فيه منذ تلك الرحلة إلى الباسو، لقد اصبح الآن يتناول طعامه معهم، حتى انه اخذ يطوف حول البيت طوال المساء إلى ان يحين وقت نومه. كانت اكثر توتراً مما كانت عليه ليلة الزفاف، وهذا أمر مفهوم بالنسبة لمثل هذه الظروف. ومع ذلك فهي تريد التقرب اليه في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة، لذا قررت ان تسعى لذلك.

اخذت تعتاد السير معه في الأمسيات عندما كان يذهب

إلى فراشه في المخزن، وكانا يتبادلان احاديث قصيرة بشأن الأسرة. ذات مساء اخبرته كاسي كيف ان بارت أخذ ذلك النهار يقرأ المجلات الهزلية لبيتي بنفس الطريقة التي كان هو ليون قد قرأها لبارت.

قالت له: «انك ممثل جيد.» لكنه تجاهل ذلك واخذ يتحدث عن مقدار ما اخذ اشقائه الأكبر منه يتعلمونه عن تربية المواشي، خصوصاً نيوت، وعندما قالت انها مسرورة لتمكن نيوت من ان يكون مساعداً حقيقياً له، واثناء ذلك يتعلم مهنة مفيدة، اومأ ليون برأسه: «على ذلك الفتى ان يكون في الجامعة.»

ذهلت لقناعته العميقة هذه: «الجامعة؟»

قال: «انه فنان، حتى انه يرسم على التراب إذا لم يجد أدوات رسم، انها موهبة، يا كاسي، وقد عرفت ذلك من قبل عندما أرسلت إليّ ذلك الرسم التخطيطي الذي صنعه لك، لكن هذه الأسابيع الأخيرة... رأيت نيوت يصنع صوراً محيّرة للغاية وذلك على الصخور بأدوات حادة، يجب ان يجد فرصة يمارس فيها ما هو صالح له، يجب ان يحصل على فرصة الذهاب إلى الجامعة.»

كانت تستمع اليه مصعوقة: «انني... انني لا اظنه فكر في ذلك.»

أجابها بغضب: «انه فكر طبعاً في هذا، يا كاسي، لكنه لا يقول، وأرى ذلك في عينيه كلما ذكرت الأمر.»

فجأة، شعرت بالخوف، الجامعة... كيف بإمكانها ان تفكر في وسيلة يدخل فيها نيوت الجامعة بعد ان استنفد إيواؤه واطعامه كل ما كان لديها؟ انها بالطبع لا تتوقع من

ليون القيام بذلك بعد كل الذي قدمه اليهم جميعاً، فهذا كثير، كثير جداً، لذا قالت: «لا يمكنه الذهاب، انه فقط لا يمكنه الذهاب.»

التفت ليون اليها وعيناه تلتمعان، ثم قال متحدياً بعنف: «اخبريه انت إذن! انك انت التي احضرته إلى هنا، ولهذا اخبريه بأنه لا يمكنه الذهاب، وإلا فأنا الذي سأخبره حتى ولو لم يأت ذكر هذا الأمر، ألا ترين انك جعلته مسؤوليتي، يا كاسي؟ الأمر الآن راجع اليّ في تحقيق احلامه أو تدميرها، وهذا ليس ذنبي، ليس ذنبي.» اغمض عينيه وهو يضغط على صدغيه بأصابعه متابعاً: «لم يكن الذنب ذنبي ولكنني تركتك تجعلينني مسؤولاً، واظن عليّ ان اجد جواباً لذلك.» تأوه وكأنه يحمل العالم كله على كتفيه. كان محقاً في ذلك، كانت تعلم انه على حق.

قالت بأسف: «انني... آسفة، لم أدرك ابداً...»

قاطعها بحدة: «انك لم تريدي أن تدركي.»

أخذت شفتاها في الإرتجاف: «ليون، لم تكن الجامعة يوماً جزءاً... لم اقصد بتاتاً... كل ما كنت أريده لهم...»

أكمل كلامها: «الأمان.»

حدّقت فيه مدهوشة ثم أومأت: «نعم، أردت لهم الأمان، لكنني حصلت على اكثر من ذلك بكثير، فهم لم يحصلوا عندك على الأمان فقط، بل على المحبة أيضاً، لقد كانت والدتي هي الشخص الوحيد الذي عرفته مليئاً بالمحبة للآخرين... إلى ان عرفتك، لم اكن اعرف ان الرجل يمكن ان ينجح في ذلك يا ليون، إلى ان أريتني ذلك بنفسك، آه، لقد حصلوا على اكثر من مجرد الأمان، يا ليون، ولا تظن انني لا اعرف هذا.»

اطبقت فمها كيلا تقول اكثر من هذا، كيلا تتفوه بكلمات قد لا يكون مستعداً بعد لتصديقها، ان تمنع نفسها من ان تقول له انها تحبه اكثر من حياتها، ان تمنع نفسها من ان تتوسل اليه في ان يمنحها جزءاً من المشاعر التي يحسها نحو الغلمان، وقفت في ذلك السكون تحدّق فيه، متسائلة عما إذا كان يمكنه ان يقرأ في عينيها كل ما تشعر به، إلى ان هز رأسه ثم قال: «تباً لك، تباً لك.»

ثم استدار مسرعاً، متوارياً في ظلام الليل.

* * *

لم يكن ثمة من فائدة، كان يخوض معركة خاسرة، وكان يعلم هذا، استلقى في الظلمة الحالكة، يحدق في السواد، ثم حاول ان يفكر في وسيلة تخرجه من مشاعره، محاولاً ان يعرف ما الذي عليه ان يفعل، لكن لم يكن ثمة من فائدة، لقد كانت كاسي على حق، فهو لا يجد طريقة يمتنع فيها عن حب الآخرين مهما اجتهد في محاولة ذلك، ليس لأجل نيوت، ليس لأجل أي من الآخرين، وليس لأجلها، انه يحب كاسي، وهذا شيء عليه ان يتعلم كيف يعيش معه لأنه لم يعد يستطيع التصرف، حتى بينه وبين نفسه، بأن لديه نية للعيش من دونها، لقد قالت انه لم يسمح لها بأن تعطيه أسباباً تجعله يظل زوجاً لها، وربما كانت على حق، ربما كان عليه ان يمنحها فرصة، ربما كان هذا كل ما يعنيه الزواج.

توقف عن التفكير في وسيلة للخروج، واخذ يفكر في وسيلة للدخول، لقد تعب من النوم في هذا المخزن اللعين، تعب من النوم وحده بينما زوجته تعاني نفس الشيء.

كان في الحقيقة يظن انها كانت تنام مع بيتي، بينما ينام بارت وفريدي معاً في السرير الصغير في الغرفة الأخرى، فإذا انتقل الآن إلى المنزل، سيكون على واحد منهم ان يعود للنوم على الأرض، وهو لا يستطيع القبول بذلك، فكر في وضع سرير آخر في المنزل، لكن لا يوجد مكان له. فقد كان المنزل صغيراً جداً لمثل هذه الأسرة الكبيرة. حتى المائدة لا تسعهم جميعاً إلا إذا وضع بيتي على ركبته، ومع ان ليس لديه مانع من ذلك، الا ان الأمر سيصبح صعباً متى كبر الصبي، من المفروض ان يضعوا لوحاً من الخشب بين الكراسي، لكنه لم يكن يريد ذلك لأسرته، أسرته...؟ وشعر لهذه الكلمة بغرابة في نفسه، لكنه لم يستطع القول بأنه لا يحبهم، فكر في بارت وهو يخبر مساعد الطبيب بأن اسمه بارت بارادايس، وابتسم لقد احبهم منذ اللحظة التي حشرهم فيها جميعاً في شاحنته عائداً بهم إلى بيته، لم يعد يحدث نفسه بأنه كان عليه ان يتركهم جميعاً واقفين في الشارع في مدينة فان هورن دون أي مكان يذهبون إليه، لكن كان لديه خيارات عديدة. كان بإمكانه ان يستدعي مكتب المبرات الخيرية. كان بإمكانه ان يرسلهم إلى دولوريس كاتر كما كانت تطوعت ان تفعل مع كاسي عندما جاءت، حتى انه كان بإمكانه ان يأخذهم مباشرة إلى الباسو فيستأجر لهم شقة ويعطيهم ما يكفيهم من النقود إلى ان تجد كاسي عملاً، ثم يذهب لرؤية محام لإنجاز طلاق سريع، لكنه لم يفعل أياً من كل هذا، وهو لن يفعل أياً منها الآن.

فكر في الثمانية آلاف فدان التي كان سيشتريها، لكنه حدث نفسه أن بإمكانه توسيع مزرعته في أي وقت، أو

بإمكانه اخذ قرض والقيام بذلك الآن، بإمكان كاتر ان يعطيه المال مقدماً، وربما من دون التعليق على كيفية تحمله عبء تربية ستة غلمان، لكن شقيقه ديل سيفعل ذلك عندما يكتشف الأمر، ولكنه سيكتشفه، كل أسرة بارادايس ستعلم سواء عاجلاً أم آجلاً.

قرر ان يكون ذلك آجلاً، بعد ان يصل وكاسي إلى اتفاق ملائم.

عندما بزغ الصباح كان قد وضع خطة، لكنه قرر ان قله الكلام عنها قد يكون الأفضل، لا شك ان كاسي ستمنعه من إنفاق المزيد من النقود بينما هو لا يرى حلاً عملياً آخر. تناول الإفطار معهم في المنزل، ثم أخبر نيوت بأنهم سيستعملون الشاحنة لهذا النهار، شعر نيوت بخيبة أمل. فهو يعشق ركوب الخيل، ولكن خيبة أمل نيوت لم تكن لتقاس بخيبة أمل التوأمين عندما تركهما ليون في المنزل مغادراً بالشاحنة.

لم تقل كاسي شيئاً عندما لاحظت أنه لم يرتد ثياب العمل في المزرعة، وهو يغادر المنزل. عندما تحركت به الشاحنة، نظر في المرآة إلى الخلف فرأى كاسي واقفة عند مدخل البيت تراقبه. أدرك انها سرعان ما ستعرف انه ليس العمل اليومي المعتاد الذي هو ذاهب لأجله، لكنه حدث نفسه بأنه في سبيل عمل أفضل، وعندما غابا عن الأنظار، التفت نيوت اليه سائلاً: «ما الذي أنت بصدده؟»

أشرق وجه ليون بالابتسام: «ما الذي جعلك تظن انني بسبيل عمل شيء؟»

«هيا تكلم يا ليون. منذ متى نغادر إلى المدينة بهذا الشكل، هذا اذا لم اكن مخطئاً.»

فقال ليون: «انك غير مخطىء.»

«حسناً، ماذا يجري إذن؟»

تنفس ليون بعمق، وقال: «هنالك أمران سنقوم بهما، الأول هو زيارة لصديق أعرفه من ايام الدراسة، هل هنالك ضرر من هذا؟»

قال نيوت وهو ينظر إليه بارتياب: «هذا يعتمد عما إذا كان ذلك الصديق امرأة.»

نظر ليون إلى الفتى ذاهلاً: «من أين أتيت بهذه الفكرة الحمقاء؟»

بدا الخجل على وجه نيوت: «حسناً، انكما انت وكاسي لا تعيشان معاً... بالضبط.»

أجاب ليون: «هذا صحيح، ولكنني قررت بأن يتغير هذا الوضع، وهذا يقودني إلى الغرض الآخر من مجيئنا اليوم.»

نظر إلى الفتى الذي كان ضاحك الأسارير، ثم رفع حاجبيه متابعاً: «اننا ذاهبان إلى حيث نشتري أدوات البناء... فذلك المنزل لا يسعنا جميعاً.»

هتف نيوت مبتهجاً، بينما قهقه ليون وهو يهز رأسه.

* * *

اخذت تجادل وتجادل حتى احمر وجهها، مرددة مرة بعد أخرى انها لم تقصد ان يضيع فرصة الحصول على الثمانية آلاف فدان تلك، وحاول هو ان يخبرها بأنه لم يفعل هذا، لكنها بحثت عن الوصل بأدوات البناء في جيب قميصه واختطفته قبل ان يستطيع منعها من ذلك. شحب وجهها وهي تقرأ الأرقام المكتوبة فيه، ولم يخفف عنها ما اخذ يقوله عن

القروض وما أشبه، حتى يئس أخيراً فتركها وذهب إلى عمله، عندما وقفت في طريقه حملها بين يديه ووضعها جانباً، أخيراً جلست على عتبة الباب وأخذت تبكي، لكنه هز رأسه وتركها تبكي، متشبثاً برأيه. يبدو ان نيوت ساوره القلق، فتقدم خجلاً، إلى ليون، وهما في العمل، ونظراته على كاسي بينما هي تجلس على العتبة تخبىء وجهها بين ذراعيها المتكئتين على ركبتيها، ثم همس باهتمام: «إذا كانت تتصرف بهذا الشكل بالنسبة إلى اضافة بناء إلى المنزل، فما الذي ستفعله إذا هي اكتشفت الأمر الآخر؟»

قال ليون وكان سبق وتناقشا في هذا الأمر: «انه مجرد امتحان لدخول الجامعة، يا نيوت، ثم انك سمعت ما قاله داتش، ستكون لديك فرص تؤهلك لكل انواع الفنون وما أشبه، وهو يعرف بهذه الشؤون حيث انه مدير مدرسة.»

همس نيوت: «ولكن الجامعة... انني لم اتعلم اية مادة من مواد الجامعة.»

تمتم ليون: «فليكن، ولكن دع كاسي لي، إياك ان تقول لها كلمة إلى ان تسنح لي فرصة التكلم معها، هل فهمت؟»

أومأ نيوت برأسه، لكن مشكلة أخرى خطرت بباله، أو لعلها اثنتان.

سأل كول وهو ينظر متوتراً في اتجاه كاسي: «ليون، اظن انني وكيلر، إذا شاءت كاسي يمكننا بدلاً من بناء ملحق للمنزل، يمكننا ان ننام تحت النجوم.»

اضاف كيلر يقول: «لقد اعتدنا على ذلك.»

لم يشأ ليون ان يجرح شعورهما، فتوقف عن حفر

الأساس لكي يربت على كتفيهما قائلاً: «ان كاسي سترضى، والبناء هو الأفضل، ثقا بكلامي، إتفقنا؟»

لم يمض ليون وقتاً طويلاً في العمل، على كل حال، فلا هو ولا نيوت ينبغي ان يرهقا نفسيهما في عصر هذا اليوم على الأخص، وهكذا نادى بالتوقف عن العمل، ثم أرسل التوأمين لإسراج حصانين، وهمس ببعض التعليمات لنيوت، ما أن ذهب هذا اليهما، حتى توجه ليون نحو كاسي.

اخرج منديلاً قدمه اليها، فأخذته صامتة لتمسح به وجهها وهي تشهق بالبكاء: «لم اقصد ان اكلفك كل هذه النفقات يا ليون. اقسم على ذلك. صدقني.»

أومأ قائلاً: «انني اعلم هذا، يا كاسي، ولكنني فكرت في الأمر كثيراً، هذا إلى ان الأمر انجز وانتهى ولا فائدة من البكاء.»

تنهدت ثم قالت بهدوء: «لا استطيع منع نفسي من التفكير بأنك، في اعماقك لن تصفح عني أبداً.»

اومأ برأسه قائلاً: «كاسي، الأمر لا يتعلق بالصفح، وإنما بأمور ليست كما كنت أظنها.»

سألته وقد ضاقت عيناها كأنما تريد ان ترى ما بداخل نفسه: «ماذا تعني؟»

كاد ان يخبرها بأنه يريدها ان تحبه كما كانت تحب جوزيف، لكن ذلك بدا له نوعاً من الحقد التافه، فهز رأسه قائلاً: «فلندع هذا. المهم هو ما نفعله الآن، يا كاسي، وأنا لن اتحدث عن اضافة بناء إلى البيت. انني اتحدث عني وعنك.»

رددت تقول بغباء: «عني وعنك؟»

اخفض نظراته نحو يديه، كانتا ترتجفان، فعاد ينظر اليها قائلاً: «اظن بإمكاننا ان نضع حلاً نهائياً للأمور بيننا، فإن علينا ان نؤسس بيتاً حقيقياً للأولاد، على كل حال.»

رددت كلمته بضعف: «علينا؟»

نظر اليها، نظر اليها حقاً وذلك لأول مرة منذ زمن طويل، ثم قال برقة: «كاسي، هل لك ان تمضي الليلة معي، وحدنا، هناك في المزرعة تحت النجوم؟»

تدفقت من عينيها دموع جديدة، وأخذت ترتجف، أخيراً أومأت برأسها، وعندما أغمض عينيه وفتح يده، وضعت يدها فيها.

الفصل العاشر

حدثها بحكايات عن غرب اميركا بهدوء غريب بدا وكأن ليس له صلة مطلقاً بذلك الدوار وتلك الرجفة اللتين تشعر بهما، اخذ يتحدث وهما ممتطيان جواديهما عن الهنود الحمر وذكر بعض الأسماء المشهورة وكثيرة غيرها لم تسمع بها من قبل. استمعت كاسي إليه باهتمام، لكن ذهنها كان من الانشغال بحيث لم يسمح لها بإلقاء أي اسئلة.

لقد كان قرر أمراً، كان ذلك ظاهراً، لقد قرر ان يبقيها وكذلك المتاعب التي احضرتها اليه من غرب فرجينيا، فماذا غير ذلك يجعله ينفق النقود التي كان وفرها لشراء الأرض على البناء؟ لماذا يأتي بها إلى هنا، وحدها هذه الليلة؟

صعدا إلى الجبال وشقا طريقهما في ممر صخري ضيق إلى القمة حيث كانا اقاما خيمة في بقعة رملية وذلك بين صخرتين ضخمتين، كان جمال المنظر لا يصدق والشفق يسبغ أشعته الوردية على الكائنات.

ألقى ليون بالفراش على الأرض، ثم ذهب ليجمع حجارة صغيرة ليصنع بها موقداً، بينما قامت كاسي بمهمة جمع ما أمكنها من مواد صالحة للاشتعال، كما ان ليون عاد بكومة من مختلف الأشياء لهذا الغرض.

ثم قال: «سأحضر الوقود، لكنك انت من ستشعل النار. أما اعداد العشاء فهي مهمتي هذه الليلة.»

كان في هذا راحة لها من مسؤولية اعداد العشاء في الخيمة، ومن انشغال بالها من ناحيته، هذا بالاضافة الى ما يمكن أن تأتي به هذه الليلة. سارت إلى صخرة بعيدة مشرفة، ثم اخذت تنظر إلى آخر أشعة الشمس وهي تذوب في زرقة السماء، لتتحول إلى اللون القرمزي ثم الرمادي ثم الظلام الدامس ترصعه النجوم البراقة. شعرت بالبرد، وسمعت صوت حركة تحت نفس الصخرة التي كانت تجلس عليها، وعند ذلك نادى ليون بأن العشاء جاهز، فنهضت عائدة إلى المخيم.

وإذ نهضت عن الصخرة، انزلقت قدمها إلى داخل فجوة في الرمال الناعمة، فصرخت، وسرعان ما كان ليون بجانبها يساعدها على استعادة توازنها. قالت بينما ترتجف: «سمعت شيئاً هنا أسفل وذلك منذ دقيقة.»

نظر في الفجوة والتي كانت اتسعت بقدمها، وقال: «ربما كان ثعلباً، فهنا توجد ثعالب رمادية اللون. لقد جربت تربية بعض الدجاج هنا فكانت تأكلها الثعالب، لا شيء يدعو إلى القلق.»

أومأت وسمحت له بأن يقودها إلى نار الخيمة، كان قد أعد وليمة جيدة. حساء خضار معلباً ولحماً مشوياً وشطائر جبن. جلست شاعرة بالدفء والراحة بالرغم من الهواء البارد، وعندما أنهيا العشاء، أخرج الجوادين إلى حيث مأواهما الليلي، ثم عاد بجانب النيران، قائلاً: «حسناً، اظننا تجنبنا ذلك قدر إمكاننا.»

لم تتظاهر بعدم الفهم، وأجابت: «ما الذي كنت تريد قوله، يا ليون؟»

فكر لحظة ثم هز كتفيه: «اظن انه علينا ان نجد حلاً لهذا الزواج، ليس سراً انني كنت... اظن ان كرامتي اصيبت بجرح بالغ عندما اكتشفت السبب في زواجك مني.»

«انني آسفة، يا ليون، فالأمر لم يكن كما بدا لك، كما تعلم، انني أردت فعلاً ان اقيم بيتاً للأولاد، ولكن هذا لم يكن السبب الوحيد الذي تزوجتك لأجله.»

«أصحيح؟»

«صدقني، فأنا لم استطع ان اصدق حظي، فقد رأيتك اكثر كثيراً مما كنت أرجو ان أجد، لقد تملكني الفرح والسرور للزواج منك.»

قال بلهجة ذات معنى: «اظن ذلك لأنني شاب دمث، دون شك.»

قالت له بإخلاص: «انك فعلاً كذلك.»

«نعم، ولكنك كنت تزوجتني أيضاً لو انني كنت رجلاً كثير التذمر ومتطلب، طالما رضيت بأخذ أولئك الغلمان، أليس كذلك؟»

لم تجب.

تنهد وألقى بخشبة في النار: «اجيبيني على سؤال واحد، يا كاسي، هل كان كل ما بيني وبينك ادعاءً وزيفاً؟»

«كلا، انك تعلم أنه لم يكن كذلك.»

«هل انا اعلم ذلك حقاً؟»

سألته: «وكيف يمكنك ان تشك في ذلك؟ كان ما بيننا رائعاً، بالنسبة إليّ على الأقل.»

استلقى على ظهره واخذ ينظر إلى السماء، وعندما تكلم،

جاء صوته هادئاً بطيئاً: «إذا كان هذا هو الأمر، فأنت لن تمانعي في الانضمام الي مجدّداً.»

همست وقد بلغ التأثر بها حد البكاء: «كلا.» لقد علم أخيراً مبلغ حبها له، سيمكنهما أخيراً ان يعودا زوجاً وزوجة مرة أخرى كما كانا في البداية، وتابعت تقول: «كيف بإمكاني ان أمانع؟»

فقال: «هذا ممتاز.»

منذ الوقت الذي تركت فيه غرب فرجينيا، كانت قد قررت ان تبادل جميع الواجبات الزوجية، بالحياة الآمنة لها وللأولاد، لكنها لم تكن قد احبته حينذاك، الآن وقد امتلك قلبها، رسمت على شفتيها ابتسامة، ثم استدارت إليه.

حدثت نفسها بأن ليس لها الحق في رفضه، وأن بإمكانها ان تتظاهر بأن كل شيء قد عاد كما كان قبلاً، انها مازالت تحبه، وقد يشعر هو بالحب لها إذا هي لم تخيّب أمله، إذا كانت زوجة صالحة. كانت تريد ان تكون زوجة صالحة، لكن الدموع تدفقت من بين أجفانها المطبقة لتنهمر على وجنتيها.

دفعها بعيداً عنه ثم هب واقفاً، وقد احنى رأسه باشمئزاز: «آه، انك لا تطيقين لمسة مني.»

صرخت: «ليس الأمر كما تظن.» لكنه كان يسرع مبتعداً.

«ليون، ارجوك.» فوقف وكأنه هم بالعودة، لكنه عاد فتابع سيره وسرعان ما ابتلعه الظلام، فانهارت جالسة على الرمال، ثم عقدت ذراعيها حول ركبتيها، واخذت تبكي فترة طويلة، كانت الدموع تنهمر بصمت على وجهها، واخذت تصرخ وترتجف عندما انطفأت النيران، ثم تكومت في كيس النوم لكي تستسلم لخيراً إلى الرقاد.

عندما استيقظت كانت أشعة الشمس تطلي السماء بلون الذهب، لكن ما ايقظها من احلامها المتعبة لم تكن الشمس، وإنما البرد القارس، تكومت في كيسها ثم مالت على جنبها تريح عضلاتها المتشنجة، كان ليون نائماً مديراً ظهره اليها، غارقاً في كيس نومه حتى أذنيه، وبجانبه عصا طويلة ذات لون مزيج من الرمادي والذهبي، ثم اذا بالعصا تتحرك، متموجة بخفة متناهية ثم تجمعت على نفسها، إنها أفعى...

دون وعي منها، اصبحت على ركبتيها، وكان بامكانها ان تقف لو لم يعقها كيس النوم، التفت الأفعى بشكل حلزوني، ثم اخذت تخشخش بنعومة في البداية، ثم بصوت أعلى، انتظرت كاسي وقد شلّها الخوف، حركة الأفعى التالية. اخذ الرأس البشع المسطح يتحرك من جهة لأخرى، وقد اخذ لسانها يدخل ويخرج من فمها. كان الكيس قد سقط إلى خصرها، لكنها لم تجرؤ على تعديله للحصول على حماية اكثر. أرادت ان تخبىء يديها. ولكنها تسمّرت لا تستطيع الحراك. بعد ما بدا لها دهراً، اخفضت الأفعى رأسها وسارت ليس نحوها بل نحو ليون. تملكها الرعب، ولكنها بقيت متجمدة، تسلقت الأفعى ظهر ليون إنشاً بعد إنش، لو انه استيقظ وتحرك... لم تستطع ان تتحمل هذه الفكرة، فكرت بشكل محموم في ما بإمكانها ان تفعل، فلم تجد سوى حلّ واحد لن يعرّض ليون لخطر كبير. وعندما وصلت الأفعى إلى حيث كتف ليون، ارتفع رأسها مبتعداً عن جسمه. بادرت كاسي إلى العمل وقد توقفت عن كل تفكير. عندما أطبقت يدها على جسم الأفعى تحت الرأس مباشرة، تعالى

صراخها وقد اقشعر جسمها من ملامستها انما عالمة بأنها إذا اطلقتها فستلدغ واحداً منهما أو هما الاثنين.

قفز ليون وقد التهبت عيناه، وفتح فمه ذاهلاً لما يراه، كانت تقبض على الأفعى قبضة الموت بينما ترتجف من الرأس إلى القدم ولكنها لا تجرؤ على تخفيف قبضتها. وأخذ هو يكافح للتخلص من كيس النوم وهو يشتم، عند ذلك أخذت الأفعى تتلوى بعنف.

صرخ: «إياك ان تتحركي.» وأمسك بشعره وهو يتقلب من جانب إلى جانب. حاول التفكير بفزع، والتفّت الأفعى على ذراعها، صرخت مرة أخرى وسقطت إلى الخلف لكنها ما زالت محكمة قبضتها، مد ليون يديه إليها، لكنه عاد فتراجع وهو يقول مهدئاً: «لا بأس عليك، اسمعي، طالما انت تشدين قبضتك عليها، فهي لن تلدغك، والآن... الآن...» نظر حوله، ثم بدا وكأنه وصل إلى حل: «اسمعي ما سنفعله. اننا سنقذفها من فوق حافة الجبل.»

«وكيف؟»

تقدم منها ببطء: «انني سأساعدك في الصعود، ثم نسير معاً إلى تلك الصخرة المسطحة هناك، وعندما نصل إلى الحافة سأسحبها من يدك ثم نلقيها معاً من فوق الحافة تلك. هل فهمت؟»

أومأت وهي مسمرة العينين بالأفعى غير سامحة لها بأن تحرك رأسها ولو جزئياً، تحرك ليون إلى جانبها ببطء بالغ ثم وضع يده على ذراعها. فتحت الأفعى شدقيها على اتساعهما ثم فحّت مبدية انيابها. لكن كاسي شدّت قبضتها عليها. وحملها ليون رافساً بقدمه كيس نومها المتعلق بها

ثم ركضا معاً نحو الصخرة المسطحة دون ان تترك يداه كتفيها إلى ان وصلا إلى الحافة واخذت كاسي تشهق رغم ان عينيها كانتا جافتين وهو ينزع جسم الأفعى من حول ذراعها.

قال وهو ينظر في عينيها بينما كانت الأفعى تتلوى ويتصاعد فحيحها: «سأعد ثلاثة، واحد، اثنان، ثلاثة.»

دفعت بالأفعى الكريهة بعيداً عنها، ثم فتحت قبضتها وألقت بنفسها إلى الخلف. لكن ذراعي ليون كانتا قد التفتا حولها، هبطا معاً متدافعين من فوق الصخرة مبتعدين وتعثرا فوق رماد نيرانهما قبل ان يقفا، ثم سألها: «هل انت بخير؟»

هتفت ودموع الارتياح تنهمر من عينيها: «لقد كادت تلدغك.»

«تلدغني انا؟ وماذا عنك انت؟ وكيف تمكنت من القبض عليها بذلك الشكل؟»

أخذت تشرح له الأمر وهي تتلعثم بالكلمات بينما كان هو يتفحص يديها وأسفل ذراعيها. ثم قال وصوته يرتجف: «كان عليك ان تدعيها تلدغني، فضررها عليّ اسهل من النوبة القلبية التي سببتها انت لي عندما رأيتك تمسكين بتلك الأفعى اللعينة.»

همست: «لم استطع... فقط لم استطع.»

«لا أدري ما كنت سأفعل لو كان حدث لك شيء.»

قالت: «هذا بالضبط ما كنت افكر فيه عنك.»

«اننا بخير نحن الاثنين، اشكرك كثيراً.»

«ولك انت.»

قهقه ضاحكاً: «لا بأس، اننا بطلان نحن الاثنين، والآن فلنخرج من هنا، انني لا اشعر بشهية لتناول الفطور.»

«ولا انا، اريد فقط ان اغسل يديّ.»

«هه... لا أدري لماذا، فأنت لم تفعلي سوى مصارعة أفعى خبيثة.»

ضحكت لكلامه، بينما ابتسم هو، وتنهدت شاعرة بهدوء رائع، أسرع هو في توضيب الخيمة واخذت هي تساعده متلهفة للذهاب إلى البيت، لم يكونا قد وصلا إلى حل في أمرهما، لكن ذلك ولأمر ما لم يعد ذا أهمية. لم تكن تريد التخلي عنه، فقد صارعت أفعى لأجله، فهي تستحق الشنق إذا ما تركته يذهب بعد ذلك، انها ستكسب قلبه بأي شكل كان.

* * *

أخذ ليون يتفحص حاجياتهما بحذر، خوفاً من أفاع أخرى لا يريد ان يخبر كاسي انه من الممكن جداً أنهما نصبا خيمتهما بجانب وكر للأفاعي. فذلك الصوت الذي كانت سمعته تحت الصخرة الليلة الماضية، قد أزعجه. هل تراه تسرّع في التفكير في ان لا ضرر من ذلك؟ لو كان هذا فعلاً، لكلفه ثمناً فادحاً، كان يمكن ان يكلفه حياة كاسي، ولم يستطع حتى التفكير في ذلك، انه لا يريد سوى ان يخرجها من هذا المكان بسرعة وأمان، فقد اضطربت أمورهما معاً، على كل حال.

لم يعرف السبب في بكائها عندما حاول الاقتراب منها، لم تكن كذلك في الماضي بل كانت تبدو عليها حينذاك السعادة البالغة، وهو الذي ترك المنزل وابتعد عنها بعد ان

لم يعد يستطيع احتمال فكرة انها كانت تزوجته لمجرد دفع الثمن وعرفان الجميل لأخذه الأولاد. دفع الثمن؟

حمل الامتعة، ثم اصطحبها الى حيث اسرجا الجوادين، راغباً في ان يبعدها عن هذا المكان قدر الامكان، وطوال الوقت كان يعيد في ذهنه ليس فقط ما كان حدث الليلة السابقة، ولكن أشياء كثيرة أخرى، مثل مبلغ حبها له في البداية... تذكر كيف كانت تنظر إليه بعينين متألقتين وابتسامة من الأعماق وكيف كانت تهمس له بأنها تحبه. تحبه... اهذا ممكن، أم هي مجرد أفكار وتمنيات؟

أخذ هذا السؤال يجول في ذهنه وهما ينطلقان في طريقهما، لقد تزوجته، دون شك، بنية تحميله عبء هؤلاء الأولاد منذ البداية، لقد كانت مستميتة للقيام بذلك، حتى ولو أثار هو استخفافها، لكنها لم تستخف به، لو كان ذلك لما مدّت يدها تقبض على الأفعى كيلا تلدغه، انه في الواقع ما كان ليفكر على ان بإمكانها فعل ذلك مهما كانت الظروف. انها شجاعة لا شك في ذلك، ولكن هل إلى الحد الذي تقدم فيه على عمل كهذا؟ ربما كان ذلك لو توفر لها الوقت لأن تفعله تدريجياً، اما ان تندفع على الفور بذلك الشكل..؟ لم يستطع ان يعرف بماذا يفكر سوى انها قبضت على تلك الأفعى بدلاً من ان تدعها تلدغه، وانها ما كانت لتشيح بوجهها عنه، أو تمنحه تلك الابتسامة الزائفة أو تبكي لو كانت تظن أو تعلم، بأنه يحبها. عندما اخذ يفكر في ذلك، لم يتأكد من انه سبق وقال لها ذلك يوماً ما. ربما لو كان فعل، لاختلفت الأمور الآن. لم يكن قد وصل بعد إلى حل حاسم عندما رفعت كاسي يدها مشيرة نحو الشرق، قائلة: «اظن لدينا ضيوف.»

كانوا قد اصبحوا في منتصف الجبل ما لم يجد معه صعوبة في رؤية سحابة من الغبار تتنقل على طول الطريق نحو بيته، أو يميز السيارة التي تثيرها، ديل... كان القادمون ديل شقيقه... وربما والديه أيضاً، أغمض عينيه، لم يكن ثمة من مجال لديه للوصول إلى المنزل قبل ديل. ارتجف وهو يفكر في نوع القصة التي سيحصل عليها ديل من الغلمان. حسناً، ليس عليه ان يلوم سوى نفسه، كان عليه ان يبلغهم الخبر بطريقته الخاصة، وذلك منذ وقت طويل، لكنه تغاضى عن الأمر بدلاً من ان يعالجه، ويا لها من طريقة يعالج بها رجل ذو أسرة أموره. نظر إلى كاسي ثم هز رأسه معتذراً وهو يقول: «حيّتان في صباح واحد.»

حدقت إليه تقول: «ما الذي تتحدث عنه؟»

فتنهد قائلاً: «ذاك هو شقيقي.»

«حسناً، علينا ان نسرع إذن لمقابلته.»

أومأ برأسه متجهماً، ثم سألها: «ايمكنك الاسراع على ظهر الجواد؟»

ابتسمت له: «ماذا تقول؟ ألست انا الفتاة التي انقذت الثور، وصارعت الأفعى الخبيثة، هل نسيت؟»

اومأ برأسه ضاحكاً، ثم انطلق مسرعاً وكاسي في أثره، كان كل ما يرجوه هو ان تجعل ديل يرتاح لوجودها، لأن من غير المحتمل ان يكون المشهد جميلاً عندما يعرف شقيقه بكل شيء.

وصلا إلى فناء المنزل، شعر ليون بالارتياح وهو يرى والدته واقفة قرب زاوية شرفة الباب، لأن ديل سيكون عليه، على الأقل ان يضبط اعصابه في وجودها، كان رأسها

منحنياً وهي تستمع إلى شيء كان فريدي يقوله لها، فريدي، آه، لا يمكن ان يكون الأمر شيئاً، فقد كانت تضحك ويدها على فمها، عند ذلك وقع نظره على ديل وهو يسير بخطوات واسعة عند جانب المنزل وبارت الى جانبه يريه البناء الحديث دون شك. كان والده هناك هو أيضاً، على الشرفة مع التوأمين، فقط نيوت وبيتي لم يكونا موجودين، لكنهما لم يتأخرا طويلاً، إذ خرجا من البيت، وكان نيوت يحمل بيتي وذلك في نفس الوقت الذي نزل فيه ليون عن ظهر حصانه.

تقدم يساعد كاسي على النزول، ثم نادى التوأمين لكي يتقدما ويأخذا الجوادين، فأطاعا هذان دون تذمر كعادتهما. لاحظ ليون انهما رمقاه بنظرات متوترة وهما يبتعدان بالجوادين، لكن لم يكن لديه وقت للتفكير في ما قد يعني ذلك، فقد كانت تنتظره عاصفة عليه ان يقاومها إذا امكنه ذلك، وهو لن يقوم بذلك في معرض الدفاع، الأفضل ان يظهر ان كل شيء هو رائع ممتاز.

نادى مرحباً وهو يتجه نحو المنزل: «مرحباً، كان عليكم ان تخبرونا بقدومكم مقدماً، لننتظركم هنا للترحيب بكم.»

قال والده وهو يتقدم للقائه: «لقد خابركم ديل هاتفياً الليلة الماضية في الواقع.»

كان نيوت واقفاً بجانب ليون فقال له معتذراً: «لقد أجاب التوأمان على الهاتف، لأنني كنت أغسل المواشي.»

فهم ليون السبب الذي جعل أهله يأتون لزيارته قبل طلوع النهار، إذ لا شك ان التوأمين قد تفوّها بكل ما عندهما،

مجيبين ديل على كل اسئلته بكل صدق، إلا إذا كانا فكرا بشيء أسوأ. شعر بكاسي تتقدم لتقف بجانبه، لم يكن هناك سوى شيء واحد للعمل: «والدتي، والدي، اقدم اليكما كاسي... زوجتي.»

لم تبد الدهشة علي أي منهما، وأومأت كاسي بالتحية: «انني سعيدة بمقابلتكما، يا سيدتي ويا سيدي.»

نظرت الوالدة إلى الوالد، فقال: «حسناً، انها فتاة جميلة، ما كنا لنتوقع أقل من ذلك بالنسبة لهذه الظروف.»

شعر ليون بكاسي تجمد في مكانها، فألقى عليها نظرة قلقة، ثم قال: «كان علينا ان نتصل بكم ولكن... لقد انشغلنا كثيراً بالأولاد وكل ذلك.» كان هذا القول منه خطأ كبيراً.

قالت والدته برقة: «لقد لاحظنا بيتك ممتلئا.»

قالت كاسي بسرعة: «انهم اشقائي، ما عدا الأصغر، فهو بيتي ابني.»

قال الوالد: «يا لها من أسرة جاهزة.»

كان ديل قد جاء ليقف معهم، فقال: «نعم، يا أبي، انها فرقة تامة.» كان يشبه ليون كثيراً إنما يزيده وزناً بعدة كيلو غرامات، وكانت عدة شعيرات بيضاء تلتمع في صدغيه. تابع قائلاً: «ان هذا التصرف هو أسوأ ما قمت به في حياتك.»

قال ليون: «اسمع يا ديل، لقد كنا اتفقنا على ان لا نتفق، وذلك عندما اشتريت انا هذا المكان...»

«كان عليك ان تبقى في البيت.»

«ان هذا هو بيتي، وفارغان هو بيتك انت، وهذا هو المناسب حيث انك الاكبر فينا. ان بارادايس هي...»

قال ديل: «مجموعة رمال وصخور، لم يطلب منك احد ان تترك فارغان لأجل هذه.»

«انني اعرف هذا، لكنني كنت أريد ان يكون لي بيت مستقل، وقد حصلت على ذلك، وهو مكان رائع مهما كان رأيك فيه.»

«اظنك فقدت عقلك إذ حمّلت نفسك مسؤولية مجموعة غلمان وامرأة تعرفت اليها من خلال اعلان في مجلة، ما الذي حدث لك؟ هل فقدت عقلك؟ ان اعلانك بطلب زوجة يماثل في الحماقة انتقالك إلى هنا في وسط...»

«لا تتكلم معه بهذا الشكل.»

لم يعرف ليون من كان اكثر دهشة، هو أم ديل، فقد كانت كاسي تقف بجانبه وقد تكورت يداها بقبضتين صغيرتين... نفس اليدين اللتين كانتا قبضتا على أفعى لكي تحميه، نظر اليها وادرك فجأة انها على استعداد لمحاربة اي كان لأجله. وليس هناك سوى سبب واحد لذلك.

مد يده ليمسك بيد زوجته، ولكن هذه هزت رأسها وهي تخطو إلى الأمام مركزة انظارها على ديل مكرّرة قولها: «إياك ان تتكلم معه بهذا الشكل مرة أخرى، انك لا تصلح لمسح حذائه، فكيف بتحطيمه؟»

«كاسي...»

لكنها تجاهلته متابعة كلامها لشقيقه: «انني لن اصبر على هذا، هل سمعت؟ انه الأروع، والأكرم... ولم يكن هذا ذنبه مطلقاً... انه لم يكن يعلم بأن زوجته لن تكون وحدها، ولكن هذا هو ليون من بين الرجال كلها.»

وضع ليون يده على ذراعها يديرها إليه قائلاً:

«عزيزتي...» لكنها التفتت تحملق في ديل الذي وقف فاغر الفم ذاهلا، وهي تتابع متسائلة: «هل كنت ستمنح هؤلاء الغلمان بيتاً، لو كنت مكانه؟ لا اظن ذلك. بل ستخبرني كم أنا شريرة إذ احملك هذا العبء، اما ان ليس لديهم بيت يضمهم، ولا احد يذهبون إليه... فهذا غير مهم...»

«كاسي...»

صرخت: «حسناً، ما كان له ان يقول لك مثل هذا الكلام بينما...»

«كاسي، انني احبك.»

«ولكنك حاولت ان تفعل الأفضل لكل شخص، فانفقت نقودك التي كنت وفرتها لشراء أرض جديدة، ورقدت في...»

تنحنح الوالد، بينما اخذ بيتي يثرثر ضاحكاً، وكان نيوت ينظر بغباء، كما كان التوأمان ينظران. قال ديل متذمراً: «من بين كل الأمور...»

قالت والدته وكاسي في نفس الوقت: «اقفل فمك، يا ديل!»

ثم نظرت الواحدة منهما إلى الأخرى بدهشة، واخذ ليون يضحك، لكنه تمالك نفسه بسرعة ليقول: «نيوت، لماذا لا تأخذ الأولاد إلى الداخل و... تطعمهم أو تشغلهم بأي شيء.»

قالت الوالدة بهدوء: «سأجهز انا الإفطار وبعد ذلك يمكننا ان نمضي زيارة ممتعة، ثم ننظر في المساعدة لبناء الغرفة الإضافية هذه.»

ألقت على ابنها الأكبر نظرة ذات معنى ارتبك هو لها، ثم تمتم يقول: «حسناً، بكل تأكيد فأنا لم اقصد القول اننا لن نساعد في ذلك.»

قال الوالد: «وما فائدة العائلة إذن؟»

قال ليون: «شكراً، إذا لم يكن لديك من مانع... فأنا اريد ان اقول كلمة لزوجتي... في المخزن، اعتبروا انفسكم في بيتكم، وسنعود بسرعة وأنتم أيها الغلمان، ليكن تصرفكم جيداً.»

قالت الوالدة: «سيكونون على ما يرام، وسأهتم انا بذلك، أما انتما فخذا وقتكما.»

ألقى ليون على والدته نظرة شاكرة تعبر عن السرور وعرفان الجميل، ابتسمت له والدته، ثم اصطحبت ديل إلى الباب.

قال لها: «ما الذي يجري هنا؟ إن تلك المرأة...»

قاطعته والدته برزانة: «انها تحبه، وهذا هو المهم.» اخذ ليون زوجته كاسي إلى المخزن متلهفاً إلى الإنفراد بها ليقول لها كل ما كان عليه ان يقوله منذ البداية.

عندما سارت معه قالت له: «لا أدري ما الذي دهاني، لقد أصبت فجأة بالجنون.»

ابتسم وهو يدفعها نحو المخزن: «هذا غير مهم، انني اريد فقط ان اخبرك بشيء مرة أخرى، إنما على انفراد هذه المرة، وبهذا أتأكد من انك تسمعينني.»

«وما هو؟»

كانا قد وصلا إلى المخزن، فأدخلها مغلقاً الباب خلفهما، ثم استدار اليها يقول: «ما أريد قوله فقط هو انني كنت أحمق للغاية. انني احبك، يا كاسي، وانا اعرف...»

«ليون، آه، يا ليون، انا أيضاً احبك، دوماً كنت احبك، ومنذ البداية، كيف لا احبك وأنت أروع رجل عرفته؟»

قال شاعراً بأن قلبه قد كبر وكبر إلى حد أذهله: «أروع رجل؟ حتى أروع من جوزيف؟»

«من جوزيف؟ لا أدري، فأنا لم امضي معه ما يكفي من الوقت لأعرف ذلك، أو ربما كنت اصغر من ان اعرف، كل ما اعرفه انه، رغم انه كان طيباً للغاية، إلا انه لم يجعلني اشعر كما جعلتني انت، وهو انني افضل ان اموت إذا انت لم تكن تحبني.»

«آه يا كاسي، يا حبيبتي، هذا ما اشعر أنا به نحوك.»

قالت: «كان ما حدث ذنبي انا، فقد كنت اقصد القيام باتفاقية معك عندما أتأكد من أننا متلائمان، وهو أنني سأتزوجك وذلك مقابل إعالتنا في منزلك. لكنني عندما جئت إلى هنا رأيتك اروع كثيراً مما كنت أتوقع، فابتدأت احبك. عند ذلك خفت من ان اخبرك عن الأولاد خوفاً من ان تبتعد عني، وهكذا خطرت لي فكرة احضارهم أولاً بأول، رغم انني كنت اعلم بأنهم لن يستطيعوا البقاء مع والدي وزوجته، لكن ما حدث هو...»

أكمل كلامها: «ان والدك طردهم من بيته قبل ان تجدي مكاناً لهم.»

«لم استطع اقناعك بشعوري عند ذاك، لأن الحقيقة كانت هي انني كنت أريد ان اجعلهم يستقرون عندك، وذلك منذ البداية، ولكنني لم اكن اعلم انني سأحبك، لكن الأمر حدث بسرعة، انني فقط... لا أدري اظنه الحب من أول نظرة، على كل حال.»

قال: «نفس ما حدث لي، وقد بقيت احدث نفسي بأن لا أتسرع وان اتأكد تماماً، لكن قلبي لم يطعني، وهكذا كنت

أريدك حتى عندما ظننتك أسوأ انواع النساء المتآمرات، فأنا لم استطع ان اتركك.»

قالت: «آه، لشد ما انا مسرورة لذلك، لكنني انا أيضاً لم اكن لأقبل بأن ادعك تذهب، بصرف النظر عما كنت سأفعله في هذا السبيل.»

«حتى ولو كان ذلك بمقاتلة الأفاعي؟»

اتسعت عيناها وجمدت في مكانها، ثم قالت: «حتى هذا، يا له من شيء مضحك. عندما كنت انت مجرد مجموعة رسائل وتمنيات، ظننت ان بإمكاني ان اقدم لك كل شيء، في مقابل توفير مسكن لغلماني، ولم يكن هذا يبدو سيئاً في ذلك الحين، ولكن عندما احببتك...»

قال: «اعلم ذلك، يا حبيبتي.»

ساد صمت قصير همست له بعده: «كنت افكر يا ليون، بأن انجب طفلاً آخر.»

تجمّد لحظة في مكانه، ثم لم يلبث ان قهقه ضاحكاً: «ولماذا لا، يا حبيبتي؟ وماذا لو زادوا غلاماً ايضاً؟»

«لقد توقعت منك قول ذلك.»

«انني احب الأطفال، انني طبعاً سأحب ابني، وهذا لا يعني انني لا أعتبر غلماننا أولادي.»

غلماننا... ابتسمت وقد كادت تتفجر سعادة وهي تقول: «انني اعلم، وهذا احد الأسباب التي جعلتني احبك وسأحبك على الدوام.»

«حسناً، إذا كنا سنعمل على انجاب طفل الآن، فهذا شيء حسن لأنه في الخريف، سيكون لدينا مكان شاغر في المنزل.»

«وكيف؟»

أجاب: «ان ابننا الأكبر سيذهب إلى الجامعة، ولا أريد اي نقاش في هذا، فهو بحاجة إلى ذلك، ويستحقه، وانا أريده ان يحصل عليه.»

حدقت فيه طويلاً، وقد اغرورقت عيناها بدموع الحب وعرفان الجميل والفرح.

تمت

www.elromancia.com
مـــروريـــة